آخر يوم لمحكوم إعدام

رواية

فيكتور هيغو



دار اكتب للنشر والتوزيع

آخر يوم لمحكوم إعدام

آخر يوم لمحكوم إعدام

آخر يوم لمحكوم إعدام

آخر يوم لمحكوم إعدام

فيكتور هيغو

ترجمة: سلمى الغزاوي

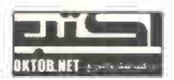
الطبعة الأولى، القاهرة 2018م

غلاف: أحمد فرج

تدقيق لغوي: خالد رجب عواد

رقم الإيداع : 15188 / 2018

I.S.B.N: 978-977-488-579 -2



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان: 12 ش عبد الهادي الطحان، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة، مصر

هاتف: 01111947957

بريد إلكتروني: daroktob1@yahoo.com

مقدمة

هناك طريقتان لفهم هذا الكتاب:

- إما أنه كان هنالك وجود فعلي لرُزمة أوراق مصفرّة وغير مرتبة عثرنا فيها على آخر الأفكار التي دوّنها محكوم بائس.

- أو أن هذا المحكوم التقى شخصًا حالمًا، شُغله الشاغل مراقبة الحياة و الأحياء في سبيل الفن: فيلسوف، شاعر..من يدري؟ وأن هذه الفكرة قد استبدّت به ولم يستطع التخلُّص منها إلا عبر دفنها بين دفتي كتاب..

للقارئ مُطلق الحرية في اختيار الطريقة التي سيفهم بها هذا الكتاب بإحدى هاتين الطريقتين.

فيكتور هيغو
1829

بيسيتر

1

محكوم عليه بالإعدام..

منذ خمسة أسابيع وأنا أعيش مع هذه الفكرة، دائمًا وحيدًا معها، دائمًا متجمدًا في حضرتها، دائمًا منحنيًا تحت ثقلها..

فيما مضى – لأنه يبدو لي أنه قد مرت سنوات و ليست فقط أسابيع – كنت رجلًا كأي رجل آخر، كل يوم، كل ساعة، كل دقيقة كانت لها فكرتها الخاصة، روحي الشابة والثرية كانت خصبة بالأَخْيِلَةِ، تلك الروح كانت تستمتع بعرض تلك الخيالات أمامي الواحد تلو الآخر، بدون ترتيب، وبدون نهاية، و تطرز بزخارف لا متناهية ثوب الحياة القاسي والرقيق في ذات الوقت..تلك الأخيلة كانت شبيهة بفتيات يافعات، ببرانس فاخرة لأساقفة، بمعارك مظفرة، بمسارح ملأى بالضجيج والأضواء، ثم مرة أخرى، فتيات نضرات، ونزهات الليل المعتمة تحت الأغصان الوارفة لأشجار الكستناء، دومًا كان ثمة احتفال في مخيلتي الخصبة، كنت أستطيع أن أفكر كما أشاء، كنت حُرًا..

الآن، أنا مسجون، جسدي يرزح تحت الأغلال في زنزانتي الضيقة، وروحي حبيسة فكرة واحدة، فكرة فظيعة، دامية، راسخة، لم أعد أملك سوى فكرة، قناعة، يقين:

- محكوم عليه بالإعدام..

مهما أفعلْ، تبقى هذه الفكرة الجحيمية حاضرة هاهنا، كَطيفٍ رمادي متصلّب كالرصاص ماثل بجانبي، فكرة وحيدة ومستبدة تطرد كل إلهاء، وجهًا لوجهٍ معي أنا البائس، وتهزُّني بيديها الصقيعتين عندما أريد أن أشيح برأسي أو أغلق عيني..

إنها تتخذ شتى الهيئات التي تريد روحي أن تهرب إليها منها، تمتزج كمقطع موسيقي رهيب مع كل الكلمات التي تُوَجّه إليَّ، تلتصق معي بالقضبان الحديدية البشعة لزنزانتي، تُصيبني بالهوس وأنا مستيقظ، تُراقِب نومي المتشنج و تظهر في أحلامي على هيئة سكين..

لقد استيقظتُ للتوِّ من نومي فَزِعًا، مُطاردًا من لدُن ذات الفكرة، وأنا أُطمئن نفسي بالقول:

- آه، إنه مجرد حلم، جيد..

قبل أن أفتح – ولو قليلًا – عينيّ المثقلتين بالنعاس، لأرى هذه الفكرة القاتلة مُجسَّدة في الحقيقة المربعة المحيطة بي، على البلاط الحجري المبلل والرطب لزنزانتي، في الأشعة الشاحبة المنبعثة من مصباحي الليلي، في النسيج الرديء لبذلة سجني، في

الوجه المكفهر لعسكري الحراسة الذي تلمع الجُعبة الصغيرة التي يضع بداخلها رصاصاته عبر قضبان زنزانتي، يُهيَأ لي أن صوتًا ما قد همس في أذني:

- محكوم عليه بالإعدام..

***

2

كان صباحًا جميلًا من شهر أغسطس..

كانت قد مرّت ثلاثة أيام على بدء محاكمتي، ثلاثة أيام واسمي وجُرمِي يجذبان كل صباح حشدًا من المتفرجين، الذين يأتون ويتجمعون على كراسي قاعة الجلسة كغِربان متحلّقة حول جثة، ثلاثة أيام والفرضيات الجدلية للقضاة والشهود والمحامون والادعاء العام تتكرر أمامي، تارة غرائبية، تارة دموية، ولكن دائمًا مظلمة و فتّاكة..

في أول ليلتين أمضيتهما صحبة القلق والرعب، لم أستطع النوم، أما في الليلة الثالثة، فقد نِمتُ تحت تأثير الملل والتعب، عند منتصف الليل، تركتُ المحلِّفين يتداولون، كانوا قد أعادوني إلى زنزانتي، إلى القش الذي أفترشُه، وسقطتُ في الحين في نوم عميق، داخل نوم للنسيان، كانت هذه أول ساعات للراحة منذ أيام طويلة..

كنت ما أزال أتخبط في أعمق أعماق النوم، حينما أتوا ليوقظوني، هذه المرة لم تَكُفِ الخطى الثقيلة والحذوة الحديدية لحذاء السجّان ونقر مجموعة المفاتيح التي لا تُحصى لديه، والصرير العالي للأقفال، كان يلزم لسحبي من غيبوبتي صوته الأجش في أذني، ويده الثقيلة على كتفي:

- هيا استيقظ..

فتحت عيني، واعتدلتُ جالسًا وأنا أشعر بالجَزَع، في هذه اللحظة، من خلال النافذة الضيقة والعالية لزنزانتي، رأيتُ عبر الرِّواق الذي يربط زنزانتي بالزنزانة المجاورة، ذلك الرواق الذي كان بالنسبة إليَّ قطعة السماء الوحيدة التي أستطيع أن ألمحها، ذاك الانعكاس الأصفر لأشعة الشمس الذي لا تستطيع عينان اعتادتا ظلمات السجن ألا تتعرفا إليه، أحبُّ الشمس..

قلتُ للسجان:

- الطقس جميل..

لم يجبني للحظات، أحسستُ به وكأنه يفكر في جدوى إهدار كلماته معي، وبعدها تحامَلَ على نفسه وتمتم على حين غِرّة:

- ممكن..

بقيتُ ساكنًا، برُوح نصف نائمة، بفم مبتسم، عيناي تمعنان النظر في ذلك الشعاع الذهبي الرقيق الذي يُلوّن شيئًا ما السقف..

رددتُ:

- يا له من يوم جميل!

أجابني الرجل:

- أجل..

وأردف:

- إنهم ينتظرونك..

هذه الكلمات القليلة، كخَيط عنكبوتي يحول دون طيران حشرة، رمتني بعنف في الواقع، رأيتُ فجأة، كَوميض البرق، قاعة المحاكمة المظلمة، المنصة الدائرية للقضاة المكلفين بقضايا قذرة، دموية، الصفوف الثلاثة الخاصة بالشهود ذوي الوجوه الغبية، الدركيين الواقفين على جانبي مقعدي، والأثواب السوداء المتماوجة، ورؤوس الحشد الذي يدب كالنمل في الخلفية في الظل، ثم تتوقف عندي النظرات الجامدة للمحلفين الاثني عشر الذين سهروا عندما كنتُ نائمًا..

قمتُ، أسناني كانت تصطكّ، ويداي ترتعشان ولا تدريان أين بوسعهما العثور على ثيابي، ساقاي كانتا ضعيفتين، تعثَّرت في أول خطوة خطوتها كحمّال يحمل أثقالًا تفوق طاقته، و مع ذلك، تبعتُ السجان..

الدركيّان كانا ينتظرانني على عتبة الزنزانة، أعادا إلى معصميّ القيود، كان للقيود قُفل معقّد أقفلاه بعناية، استسلمتُ بآلية لهما، وكأنهما كانا يضيفان قطعة غيار لآلة متهالكة..

اجتزنا فناءً داخليًّا، أنعشني نسيم الصباح العليل، رفعت رأسي، كانت السماء زرقاء وأشعة الشمس الحارة المتقطعة عبر المداخن الطويلة ترسم زوايا شاسعة من النور على الجدران العالية والمظلمة للسجن، كان يومًا جميلًا بالفعل..

صعدنا سُلّمًا دائريًّا، ثم عَبَرْنا ممرًّا، فآخر، فثالثًا، وبعدها فُتح باب منخفض، هواء ساخن، مختلط بالضجيج، صفع وجهي، كانت تلك أنفاس الحشد داخل قاعة المحاكمة، دخلتُ..

بمجرد ظهوري، تعالت الأصوات وسمعتُ طقطقة أسلحة الجنود، شرعت المقاعد في التحرُّك بصخب، و تناهى إليّ صرير فواصلها الخشبية، وحينما كنت أجتازُ القاعة الطويلة بين كتلتين بشريتين مطوقتين بالعساكر، بدا لي أنني كنت المركز الذي رُبِطَت إليه الخيوط التي تحرك هذه الوجوه المشدوهة، و الأعناق المشرئبة..

في تلك اللحظة، انتبهت إلى أن قيودي قد انتُزعت، ولكنني لم أستطع تذكر أين أو كيف نُزِعت من يديّ..

حينئذٍ، ساد صمت رهيب، كنت قد وصلتُ إلى مقعدي، في اللحظة التي توقف فيها صخب الجمع، توقف أيضًا صخب أفكاري..

فجأة، فهمتُ بوضوح ما كان مشوبًا باللبس والغموض في ذهني إلى حدود تلك الساعة، ألا وهو أن اللحظة الحاسمة قد أزفت، وبأنني كنت هناك، لأسمع منطوق الحُكم الصادر عليّ..

فلتُفسروها إذا استطعتم، إن الطريقة التي حضرتني بها هذه الفكرة لم تسبب لي الذعر، النوافذ كانت مشرعة، هواء وضوضاء المدينة كانا يدخلان بِحُرية من الخارج، القاعة كانت مضاءة كما لو كانت مهيأة من أجل عرس، وأشعة الشمس المبهجة تعكس هنا وهناك الوجه المضيء للمنافذ، تارة تبدو وكأنها مستلقية على الأرضية، وتارة كبُقعة ضوء متسعة على الطاولات، وتارة أخرى متكسرة على زوايا الجدران، وعبر الألواح الزجاجية اللامعة للنوافذ، كان كل شعاع ينشر في الفضاء نُثارًا عظيمًا من الغبار الذهبي..

كانت أمارات الرضا ظاهرة على القضاة الجالسين في آخر القاعة، على الأرجح كانوا مسرورين لأنهم على وشك إغلاق القضية، كان وجه رئيس المحكمة المنير بانعكاس طفيف لنور منبعث من إحدى النوافذ، يظهر عليه شيء ما من الهدوء والطيبة، في حين كان ثمة مستشار شاب يتحدث بنوع من

الابتهاج – وهو يُسَوّي ياقته – مع سيدة جميلة تعتمر قبعة وردية، وتجلس لحُسن حظِّها خلفه..

وحدهم المحلفون كانوا يبدون شاحبين، منهكين، لكن غالبًا من جرّاء تعب السهر طيلة الليل، البعض منهم كانوا يتثاءبون، لا شيء في مظهرهم كان يوحي بأنهم رجال اتخذوا قرارًا بإعدام أحدهم، إذ على وجوه هؤلاء البورجوزايين الطيبين لم أخمّن سوى رغبة كبيرة في النوم..

قُبالتي، كانت هناك نافذة مفتوحة على مصراعيها، كنت أسمعُ ضحكات بائعات الورد على الرصيف، وعلى حافة اللوح الزجاجي للنافذة، كانت هناك زهرة صغيرة صفراء جميلة، تسبح في أشعة الشمس ويتلاعب بها النسيم..

أنّى لفكرة مخيفة أن تلوح وسط كل هذه الأحاسيس الرقيقة؟

كان يستحيل أن أُفكِّر في شيء آخر عدا الحرية، وأنا مغمور بالهواء والشمس، الأمل أتى ليُشِعّ بداخلي تمامًا كضوء النهار، وبكل ثقة كنت أنتظر صدور الحُكم عليّ، كما ننتظر الخلاص، والحياة..

في هذه الأثناء وصل المحامي الموكول إليه الدفاع عني، كنا ننتظره، كان قد تناول وجبة مشبِعة بشهيّة كبيرة، اتخذ مقعده وانحنى عليّ، وقال لي وعلى وجهه ابتسامة:

- أتمنى..

أجبتُه بخفّة وأنا مبتسم أيضًا:

- أليسَ كذلك؟

استطرد:

- أجل، لا أعرف شيئًا بعد عن قرارهم، لكنهم دون شك قد أزاحوا فرضية سبق الإصرار، إذن عقوبتك لن تتعدى الأشغال الشاقة المؤبدة..

أجبتُ باستنكار:

- ماذا تقول يا سيدي؟ أفَضّلُ الموت مئة مرة..

أجل، الموت، كان هناك صوت داخلي يُردِدها عليَّ: ماذا يُضيرني إذا قُلْتُها؟ أَسَبَق وصَدَرَ حُكمٌ بالإعدام إلا في منتصف الليل، على ضوء الشموع، في قاعة مظلمة مُدلهِمّة، وفي ليلة باردة ممطرة من فصل الشتاء؟ ولكن في شهر أغسطس، في الساعة الثامنة صباحا، في يوم جميل كهذا، مع هؤلاء المحلفين الطيبين؟ هذا مستحيل، ثم عادت عيناي تُحدِّقان إلى الزهرة الصفراء التي تُداعبها الشمس..

على حين غرة، طلب مني رئيس الجلسة – الذي لم يكن ينتظر سوى حضور المحامي الموكل بالدفاع عني – الوقوف، فرفع الجنود أسلحتهم بحركة آلية، ووقف الحضور في ذات

اللحظة، كان ثمة شخص بوجه خالٍ من التقاسيم المميزة يجلس خلف منضدة تحت منصة القضاة، كاتب ضبط على ما أظنُّ، شرع في قراءة الحكم الذي نَطَقَ به المحلّفون في غيابي. انبثق عرقٌ بارد من خلايا جسمي كافةً. استندتُ إلى الجدار كي لا أسقط..

سأل رئيس الجلسة محامي الدفاع:

- ألديك ما تقوله بخصوص تطبيق العقوبة؟

كان بإمكاني أنا أن أقول الكثير من الأشياء، لكن لم يحضرني شيء في تلك الأثناء، إذ التصق لساني بسقف حلقي..

نهض محامي الدفاع..

ما فهمتُه هو أنه كان يحاول تخفيف حُكم هيئة المحلفين، واستبدال عقوبة الإعدام بعقوبة السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة، تلك العقوبة التي جرحتني رؤيته يتمناها لي..

أظن أن الاستنكار كان قويًا بداخلي، ليتغلب على آلاف المشاعر التي تتصارع في صدري، رغبتُ في أن أُردّد بصوت عالٍ ما سبقَ وقلته للمحامي:

- أفضِّلُ الموت مئة مرة..

لكن النَّفَسَ خانني، ولم أستطع إلا سحب المحامي من يده بقسوة، وأنا أصرخُ متشنجًا:

- لا..!

انتصر المدعي العام على المحامي في المرافعة، كنت أستمعُ إليه بِرضًى غبي، بعدها غادر القضاة للمداولة، ثم عادوا ليقرأ الرئيس القرار الصادر في حقِي على مسامعي.

صاح الحشد:

- محكوم عليه بالإعدام..

وبينما أنا أُساقُ خارج قاعة المحكمة، تدافَعَ الجمع من حولي مُصْدِرِين ضجة مهولة تضاهي ضجة انهيار مبنى، أما أنا فقد كنتُ أسيرُ مُترنحًا و مشدوهًا، نَمَت ثورة بداخلي..

قَبْلَ إصدارهم قرار الإعدام في حقي، كنت أحسُّ بأنني أتنفس، أنبض، أعيش، في نفس المحيط الذي يحيا به الأناس الآخرون، الآن، بوسعي أن أميّز بوضوح هوة سحيقة تحول بيني وبين العالم، لم أعُدْ أرى أيَّ شيء من نفس المنظور الذي كنت أرى من خلاله في السابق، حتى هذه النوافذ العريضة، المضيئة، والشمس الدافئة، هذه السماء الصافية، وهاته الزهرة الجميلة، كل هذه الأشياء صارت بيضاء وباهتة، و كأنها اصطبغت بلَون الكفن..

وأولئك الرجال، أولئك النساء، وأولئك الأطفال الذين كانوا يتحلّقون حولي، اتخذوا في نظري هيئة أشباح..

في أسفل السُلم كانت تنتظرني عربة سوداء، قذرة، مُسَيّجَة، في اللحظة التي كنتُ أتأهَّب فيها للصعود إلى مَتْنِها، نظرت بتلقائية إلى الساحة..

- محكوم عليه بالإعدام!

صرخ العابرون و هم يركضون نحو العربة..

من خلال السحابة التي بدا لي أنها تفصلني عن كل الأشياء المحيطة بي، استطعتُ أن أميّز شابتين تلاحقانني بأعين متعطشة، قالت الفتاة الأصبى وهي تصفّق:

- جيّد، سيتم إعدامه بعد ستة أسابيع!

***

3

محكوم عليه بالإعدام!

وبعد، لمَ لا؟

أتذكر أنني قرأتُ ذات مرة، في كتاب ما، جملة كانت هي أفضل ما وَرَد فيه. تقول الجملة:

"– جميع الناس محكوم عليهم بالإعدام مع وَقْفِ تنفيذ غير محدد.."

ماذا تغيّر إذن في وضعي؟

منذ الساعة التي أعلن فيها الحُكمُ عليَّ، كم مات من الأحياء الذين كانوا يُخططون لحياة طويلة؟ كم سبقني إلى الموت من شباب أحرار ومعافين كانوا يتوقعون أن يشهدوا يوم قطع رأسي في ساحة الإعدام! وكم من آخرين يمشون ويتنفسون الهواء الطلق، ويخرجون وقتما شاؤوا، ويعودون متى أرادوا، سيسبقونني بدورهم إلى الهلاك قبل أن يحين موعد إعدامي!

وبعد، هل ثمة شيء في حياتي هذه يستحق الأسى؟

في الحقيقة، النهار المظلم، والخبز الأسود في زنزانتي، وحصة الحساء القليلة التي يغترفونها لي من قِدْر مطبخ السجن القذر، المعاملة الخشنة التي أتلقاها، أنا الشخص المهذب الذي تلقّى تربية حسنة، بالإضافة إلى تعنيف السجّانين و الحُرّاس، وعدم رؤية إنسان يجدني جديرًا بأن يُوَجّه إليّ كلامه و يمنحني حق الرد عليه، ثم الارتجاف دونما توقفٍ مما اقترفته ومما سيقترفونه في حقي، ها هي ذي المزايا الوحيدة التي بمستطاع الجلاّد أن ينتزعها مني!

آه، مَن يهتم؟ هذا فظيع!

***

4

أقلّتني العربة السوداء الخاصة بالسجناء إلى سجن بيسيتر البشع..

من بعيد، يلوح هذا الصرح مَلَكِيًّا نوعًا ما، يحدّه الأفق، ويقابله تَلٌّ، ويبدو عن بُعد أيضًا محتفظًا بالقليل من فخامته القديمة، بمظهر أقرب إلى قصر مَلكي..

لكن، كلما دنَوت منه، يصبح القصر شبيهًا بخَرائب، الأسوار المتضررة تخدش البصر، لا أدري، لكن ثمة شيئًا مُعيبًا يُفقر ويلطخ هذه الواجهات الزجاجية، وكأن الحوائط مصابة بالجُذام، أما القضبان الحديدية المتشابكة التي يلتصق بها هنا وهناك وجه شاحب لسجينٍ أو مجنون، فقد حلّت مكان الواجهات، وزجاج النوافذ..

إنها الحياة، عندما تُرى عن قُرْب..

5

بمجرد وصولي، تولّتني أيدٍ حديدية، قاموا بمُضاعفة الاحتياطات: ما من سكين، ما من شوكة من أجل وجباتي، ألبسوني سُترة شبيهة بسترة المجانين قُيّدت يداي، كانوا مسؤولين عن حياتي، كنت قد قدّمت مُلْتَمسًا لنقض الحُكْم، وكان من الممكن أن تطول هذه القضية المكلفة لستة أسابيعٍ أخرى أو سبعة، وكان من المهم أن يحافظوا عليّ سليمًا مُعافًى إلى أن أصِلَ إلى ساحة الإعدام..

في أيامي الأولى، عاملوني بنعومة لم أتحملها، عناية السجان كانت مُضمّخة برائحة المقصلة، لحسن الحظ، بعد بضعة أيام، انتصرت عادتهم على عنايتهم، وصاروا يعاملونني بذاتِ القسوة التي يعاملون بها المسجونين الآخرين، ولم يعودوا يخصونني بتلك المعاملة المميزة والمؤدبة وغير المعتادة التي كانت تجبرني على رؤية الجلّاد مرارًا وتكرارًا. لم يكن هذا التحسن الوحيد الذي طرأ، حيث إن صغر سنّي، طاعتي، رعاية قسّ السجن، وخاصة الكلمات اللاتينية القليلة التي كنت أوجّهها إلى حارس السجن،

وإن لم يكن يفهمها، كل هذه الأشياء منحتني حق الفُسحة مرة في الأسبوع مع بقية المسجونين، وخلّصتني من سترة المجانين التي كانت تشلني..

بعد تردُّد كبير، منحوني أيضًا الحبر، الورق، ريشة من أجل الكتابة، ومصباحًا ليليًّا..

في كل الآحاد، بعد القداس، كانوا يتركونني في الباحة، في ساحة الاستراحة، هناك كنت أتحدث مع السجناء، كان عليَّ أن أتكلم معهم، إذ إنهم أناس خيّرون وبائسون، كانوا يحكون لي تفاصيل الجرائم التي ارتكبوها، كان ذلك مُريعًا، و لكنني كنت أعرف أنهم يتباهون، علّموني لغة السجن، أن "أرطن بلُغتهم السرية" كما كانوا يقولون، كانت لغة دَخيلةً بالكامل على اللغة الفرنسية الأصلية، كزائدة جلدية بشعة، أو كثُؤلول، أحيانًا، كانت شبيهة بِطاقة مُتفرّدة، أو متعة مرعبة، مثلًا، كانت عبارة : "هناك عصير عنب على الأرضية"، هذه الجملة تعني: " هناك دم في الطريق"، وعبارة: " عقَدَ قرانه على الأرملة " تعني: "الإعدام شنقًا "، وكأن حبل المشنقة كان يستحيل أرملة لكل المشنوقين، أما رأس السارق، فقد كان له اسمان: "جامعة السوربون" حين كان يخطط ، يدبر وينفذ الجريمة، و"جذع الشجرة " حين كان الجلاد يقطفه، أحيانًا، من وحي أغنية شعبية ساخرة: "سلة قصب مخملية" بمعنى:

"قفة متشرد"، " الكاذبة " كانوا يقصدون بها اللسان، وهلمّ جرًا.. في كل مكان، في كل لحظة، ثمة كلمة غريبة، غامضة،

قبيحة وبشعة لا أعرف مصدرها: " حفرة" كانت تعني الجلاد، " آلة التقطير " كدلالة على الموت، "صالة العرض" أي ساحة تنفيذ الإعدام، بوسعنا أن نقول إننا ونحن نتكلم بهذه اللغة كنا كما لو أننا نلعب لعبة الضفادع والعناكب، عندما نسمع الألسنة ترطن بهذه اللغة، ينتابنا إحساس بأن هناك شيئًا متسخًا ومُغبرًا، أو فلنقل رزمة من الأسمال البالية يقوم أحدهم بنفضها في وجوهنا..

على الأقل، هؤلاء الرجال كانوا الوحيدين الذين يتعاطفون معي، السجانون، والحراس وحاملو مفاتيح الزنازن - لا أحقد عليهم - يتكلمون و يضحكون و يتحدثون عني أمامي، وكأنني جماد..

***

6

قلتُ لنفسي:

- بما أنه لديَّ مستلزمات الكتابة، لِمَ لا أكتب؟ ولكن، ماذا سأكتب؟

محبوس بين أربعة جدران حجرية عارية وباردة، مُجرّد من حرية التجوال، بلا أفق تلمحه عيناي، ومصدر إلهائي الوحيد اليومي هو أن أتبع بنظري هذا المربع الأبيض الصغير على الحائط المظلم، الذي ليس في الحقيقة سوى انعكاس ضوء باهت يتسلل من ثقب باب زنزانتي، وكما قلتُ سابقًا، وحيد رفقة فكرة، فكرة الجريمة والعقاب، فكرة القتل والموت، هل باستطاعتي قول أي شيء، أنا الشخص الذي لم يعد لديه ما يفعله في هذا العالم؟ وهل سأعثر في هذا العقل المتقلّص والفارغ عما يستحق عناء الكتابة؟

لِمَ لا، إذا كان كل شيء من حولي رتيبًا وخاليًا من الألوان، أليسَ هناك بداخلي عاصفة، مقاومة، مأساة؟

هذه الفكرة الراسخة التي تتملكني، ألا تحضرني كل ساعة، كل لحظة، في هيئة جديدة، دومًا أكثر بشاعة ودموية، كلما اقترب الأجل؟ لِمَ لا أحاول أن أحدّث نفسي عن كل ما يخالجني من أحاسيس عنيفة ومُبهمة في هذه الوضعية الميؤوس منها، التي أجد نفسي عالقًا فيها؟ بالتأكيد، ستكون مادة غنية للكتابة، وحتى لو كانت حياتي جد مختصرة، سيكون ثمة الكثير من المخاوف، من الرعب والعذابات التي ستملؤها، ابتداء من هذه الساعة وصولًا إلى ساعتي الأخيرة، مادة كفيلة باستهلاك هذه الريشة وإفراغ هذه المحبرة، زِدْ على ذلك، أن الوسيلة الوحيدة لتخفيف هذه المعاناة هي مراقبتها، و أكيد أن رسمها سيُسلّيني..

ثم إن ما سأكتبه بهذه الطريقة من المحتمل ألا يكون عديم الجدوى، يوميات عذاباتي، ساعة بساعة، دقيقة بدقيقة، محنة بمحنة، إذا ما كنت أملكُ قوة الاستمرار في كتابتها إلى أن يحين الوقت الذي يستحيل فيه أن أكملها بسبب غيابي الجسدي، هذه القصة، التي ستكون لا محالة غير منتهية، ولكن كاملة بما يكفي بفضل مشاعري، ألَنْ تحمل في طيّاتها عِبرة عظيمة وعميقة؟ ألن يكون في محضر عذاباتي فكرة تحتضر، في هذا التطور المُطرِد لآلامي، وفي هذا النوع من التشريح الفكري لمحكوم بالإعدام، أكثر من درس لأولئك الذين ينطقون بالأحكام؟ من الوارد أن قراءة يومياتي ستُقيّد أيديهم نوعًا ما، قبل أن

يُقدِموا في مرات أخرى على رمي رأس مفكرٍ، رأس رجل، في ذاك الشيء الذي يُصطَلح على تسميته بميزان العدالة..

ربما لم يسبق لهؤلاء التعساء أن فكّروا في سلسلة العذابات المتتالية البطيئة التي تتسبب فيها هذه الصيغة المستعجلة التي هي قرار الإعدام؟ ألَم يسبق لهم قط التوقُّف أمام هذه الفكرة المؤلمة التي تقول إنه في كل مرة يعدمون فيها رجلًا، فإنهم يعدمون فِكرًا، فكرًا كان يُعَوّل على أن يحيا، وروحًا لم تستعد بعد للموت؟

نعم، إنهم لا يرون في كل هذا سوى السقطة الحرة لتلك المقصلة الفظيعة الشبيهة بسكين ثلاثية النصل، وهم يفكرون بلا رَيْب بأن السجين مجرد شخص لم و لن يكون هناك شيء مثير للاهتمام في حياته التافهة..

هذه الأوراق التي سألطّخها بحبري ستكذّبهم، حتى إنه من الممكن أن يتم نشرها ذات يوم، وإذ ذاك، ستجعل ضمائرهم تفكر لبعض الوقت في معاناة الأرواح، تلك المعاناة التي لا يساورهم أدنى شك في حدوثها، بل إنهم يحسون بنشوة الانتصار لاستطاعتهم القتل بأقل الآلام الجسدية الممكنة، أوه، هنا مربط الفَرس، فماذا يساوي الألم الجسدي مقارنة بالألم الروحي؟

إنه قانون متناقض، يقضي بإصدار حكم مرعب، والحرص على تنفيذه برحمة..

ربما سيأتي يومٌ ما، ستُساهم فيه مذكراتي هذه - التي ليست سوى اعترافات أخيرة لبائس- في إعادة التفكير في هذا القانون المتناقض..

إلا في حالة ما إذا أتت الرياح بعد موتي، لتعبث في ساحة السجن بأوراقي الملطخة بالوحل، إلى أن تتعفن تحت المطر..

***

7

لماذا أكتبُ هذه اليوميات؟ عساها تعود بالنفع يومًا على آخرين، أو تمنع قاضيًا مستعدًّا لإصدار هذا القرار المريع، وتنقذ تعساء، أبرياء كانوا أم مذنبين من الاحتضار الذي حُكِمَ عليّ به. ما الجدوى، ماذا يهمني؟ حينما سيقطعون رأسي، ماذا يضيرني في أن يقطعوا رؤوس سُجناء آخرين؟ كيف تجرأت على التفكير في ارتكاب حماقة الكتابة؟ ما النفع الذي سيعود عليّ، في حالة إلغاء عقوبة الإعدام بعد قطعهم رأسي؟

ما الذي سأجنيه؟ فالشمس، الربيع، الحقول الزاخرة بالزهور، الزقزقة الصباحية للطيور، السُّحب، الأشجار، الطبيعة، الحرية، الحياة، كل هذا لم يعد لي..

آه، أنا من ينبغي إنقاذه! هل صحيح أنه ما من سبيل لإنقاذي، وأنه عليّ أن أموت غدًا، أو ربما اليوم، قُضِيَ الأمر!

يا إلهي! يا لها من فكرة فظيعة تعبُر ذهني في هذه اللحظة. وتحرَضني على تحطيم جمجمتي عبر ضرب رأسي مرارًا و تكرارًا في حائط زنزانتي..

***

8

لنَشْرَع في عَدّ ما تبقى لي:

- ثلاثة أيام من الأجَل بعد منطوق الحُكم من أجْلِ طلب النقض..

- ثمانية أيام من النسيان بمكتب المدّعي العام بمحكمة الجنايات، قبل أن يرسلوا أوراقي إلى ديوان الوزير..

- خمسة عشر يومًا من الانتظار في ديوان الوزير، الذي لن يعلم غالبًا بوُجود أوراقي على مكتبه، و مع ذلك، يُفْتَرَض أن يُحيلها - بعد الاطلاع عليها - إلى محكمة النقض..

في محكمة النقض سيتم ترتيب أوراقي، وترقيمها وتسجيلها، وبما أن الطلب مرتفع جدًّا على المقصلة، فإن كل مُدانٍ يجب أن يحترم دوره في الموت..

- خمسة عشر يوما للحرص على ألا تكون هناك تجاوزات أو خروقات بحَقّي..

أخيرًا. ستجتمع المحكمة ذات خميس كعادتها لترفض عشرين طلبًا دفعةً واحدة. وتُعيد كل الملفات إلى الوزير الذي سيعيدها إلى المدعي العام الذي سيحيلها بدوره إلى الجلاد..ثلاثة أيام..

صباح اليوم الرابع سيقول نائب المدعي العام لنفسه، وهو يضع ربطة عنقه: يجب أن تنتهي هذه القضية. إذًا، إذا لم يكن نائب كاتب الضبط منشغلًا، في غداء مع أصدقائه مثلًا، فإن قرار تنفيذ الإعدام سيُكتَب، يُخْتَم و يُرْسَل.

في اليوم المُحدَّد للتنفيذ، منذ ساعات الفجر الأولى، ستُسمع أصوات تثبيت منصة الإعدام في ساحة "غريڤ"، وأصوات المُنادين الذين يصيحون بأعلى أصواتهم، بحناجرهم المبحوحة في مفترقات الطرق ليعلنوا أن اليوم سيشهد قطع رأس رجل..

المجموع: ستة أسابيع. إذن، ها هي ذي خمسة أسابيع أو ربما ستة قد انصرمت منذ أن أتوا بي إلى سجن بيسيتر اللعين. لم أعد أجرؤ على العدّ. ويبدو لي أن يوم الخميس قد مرّ منذ ثلاثة أيام..

***

9

لقد كتبتُ وصيّتي للتو..

ما جدوى ذلك؟ إنني مُلْزَمٌ أيضًا بتأدية مصاريف الدعوى، وكل ما أملكه لا يكاد يكفي لذلك. المقصلة مُكلِّفة جدًّا.

سأترك ورائي أمي، سأترك زوجتي وسأترك طفلتي أيضًا. طفلة صغيرة عمرها ثلاث سنوات، رقيقة، بشرتها وردية، حساسة، بعينين سوداوين كبيرتين، وشعر كستنائي طويل.

آخر مرة رأيتُها فيها كانت قد بلغت من العمر عامين وشهرًا واحدًا. وهكذا، بعد موتي، ثلاث نساء ستصبح واحدة منهنَّ بلا ابن، والثانية بلا زوج، والثالثة بلا أب. ثلاث نساء من شرائح عُمرية مختلفة، ثلاث نساء فجعهنَّ القانون.

أعترفُ بأنني أستحقُّ عقوبتي، ولكن ما ذنب هؤلاء البريئات؟ لا يهم، العدالة تقضي بأن تُشَوّه سمعتهن وأن يُعْلَن إفلاسُهن.

لستُ قَلِقًا على أمي العجوز المسكينة، التي تبلغ من العمر أربعة و ستين عامًا، لأنها ستموت جرّاء الحزن عليّ، أو ستعيش

بضعة أيام أخرى بعدي. كل ما أتمناه هو أن تجد بعض الفحم الساخن في مدفأتها حتى اللحظة الأخيرة، وحينها، لن تتذمر ألبتّة..

لن أقلق كذلك على زوجتي، لأن صحتها سيئة أساسًا، وروحها عليلة، وستموت بدورها.إلا إذا أصابها الجنون، يقال إن الجنون يجعل المرء يحيا، إذ على الأقل لن يعاني العقل المُغيّب، و من ثن فهو في حُكْم الميت..

ولكن ابنتي، طفلتي، صغيرتي المسكينة ماري التي تضحك وتلعب و تغني في هذه الأثناء، و لا تفكر في أي شيء، هي التي تُدْمِي قلبي..

***

10

زنزانتي عبارة عن:

- ثماني أقدام مربعة، أربعة حوائط حجرية عالية، وأرضية مُرَصّفة ببلاط عار.

على يمين الباب، نجد مدخلًا صغيرًا يُستخدم كَمضجع، حيث يقوم بعض القش مقام الفراش، وهناك من المفترض أن يرتاح أو ينام السجين، وهو يرتدي صيفًا وشتاء نفس ملابس السجن، والتي هي عبارة عن بنطلون من القماش الخشن وقميص قطني ضيق ورديء.

فوق رأسي مباشرة، عوض السماء، نجد سقفًا كالحًا تتدلى منه خيوط عناكب كثيفة حتى ليَخال المرء أنها خِرق بالية معلقة في السقف.

فيما عدا ذلك، لا وجود لنوافذ، ولا لفتحات تهوية، بل حتى الباب الخشبي للزنزانة مُصَفّح بالحديد.

أعتذر، أنا مخطئ، ففي أعلى الباب، في وسطها تمامًا، ثمة فتحة من تسع بوصات مربعة، يعبرها سياج على شكل صليب، لكن السجّان يغلقها ليلًا..

في الخارج، هناك ممر طويل نسبيًّا، مضاء، يحظى بفتحات تهوية على طول الحائط، هذا الممر مقسّم إلى غرف صخرية تُفضي الواحدة منها إلى الأخرى عبر سلسلة من الأبواب الضيقة و المنخفضة، التي تقود إلى زنزانات انفرادية مُعْتِمَة كزنزانتي..

في هذه الزنزانات الانفرادية، يتم حبس السجناء الذين حَكَمَ عليهم مدير السجن بإحدى العقوبات التأديبية، أما أول ثلاث زنزانات انفرادية، فهي مخصصة للمحكوم عليهم بالإعدام كونها الأقرب إلى السجّان.

هذه الزنزانات هي كل ما تبقى من قصر بيسيتر القديم، الذي شُيّد في القرن الخامس عشر بأمر من الكاردينال "دي وينشستر"، نفس الشخص الذي أمَر بإحراق جان دارك، هذا ما سمعتُ السجان يقوله لبعض الفضوليين الذين جلبهم ليتفرّجوا عليّ في قفصي قبل أيام، والذين ظلوا ينظرون إليّ عن بُعد و يراقبونني و كأنني وحشٌ معروض في سيرك، قبل أن ينصرفوا بعدما منحوا السجان مبلغًا لا بأس به نظير الفرجة..

كدتُ أنسى أن أخبركم بأن هناك حارسًا يقف ليل نهار قرب باب زنزانتي، لذا يستحيل أن أرفع نظري صوب فتحة الباب دون أن تلتقي عيناي بعينيه الثابتتين والمفتوحتين دومًا..

ومع كل هذا، يُفْتَرَضُ أننا نتمتع بالهواء والنور في هذه العُلَب الحجرية..

***

11

ماذا بوسعي أن أفعل في الظلمة، بما أن شمس النهار لم تُشرق بعد؟

خطرت ببالي فكرة، قمت وأنَرت بقنديلي الجدران الأربعة لزنزانتي الجدار تلو الآخر، اكتشفت أن كل جدار مغطى بكتابات، برسومات، بوجوه غريبة، بأسماء تتداخل وتنمحي تحت بعضها البعض، يبدو أن كل سجينٍ كان يرغب في أن يُخَلّف أثرًا هنا على الأقل..

كتابات ورسومات بقلم الرصاص، بالطبشور، بالفحم، حروف سوداء، بيضاء، رمادية، وآثار حُفرت عميقًا في الحجارة، هنا وهناك، حروف متناثرة أظنها كُتبت بالدم..

بالتأكيد، لو كان ذهني أكثر صفاء، كنت سأهتم أكثر باكتشاف هذا الكتاب الغريب الذي نُقِشَت صفحاته على كل حجر من زنزانتي، وكنت سأجمع شظايا هذه الأفكار المبعثرة، كي

أعثر فيها على اسم كل رجل مرّ من هنا، وأُعيد المعنى وأبُث الحياة في هذه الكتابات المُنكّل بها، وهذه الجمل المبتورة، والكلمات المُجْتَزة، كجسد بلا رأس، تمامًا كأولئك الذين كتبوها..

بمحاذاة مضجعي، هناك قلبان مشتعلان يخترقهما سهم، وفوقهما كُتِب: "حُبٌّ مدى الحياة ". البائس، لم يَطُل عهد حبه..

قُرب هذين القلبين، ثمة رسم ما يشبه قبعة بثلاثة قرون، ووجه صغير رُسِمَ برداءة، وفوقه هذه الكلمات: "عاش الإمبراطور! 1824 ".

ومن ثمَ، قلوب مشتعلة أخرى، مع هذه العبارة الشاذة الخاصة بالسجن:

- "أحب وأعشق ماثيو دانفان. جاك.."

على الحائط المقابل نقرأ هذا الاسم: "باباڤوان" بحرف باء مزخرف ومزيّن بعناية..

مقطع من أغنية بذيئة..

ثم غطاء رأس "الحُرّية" منحوت عميقًا في الحجارة، كُتِبَ تحته:

- " بوريس – الجمهورية. "

لقد كان هذا السجين واحدًا من أربعة ضباط "لاروشيل"، كان شابًّا مسكينًا، كم هو بشع احتياجهم إلى كبش فداء

يُلْصِقون به تُهمهم السياسية المزعومة، من أجل فكرة، من أجل حلم، من أجل مجرد خيال، يعاقبونهم بهذه الحقيقة الفظيعة التي تُدعى: المقصلة، وأنا الذي أتذمر، أنا البائس الذي ارتكب جريمة حقيقية، والذي أراق دمًا!

لن أذهب أبعد في بحثي هذا، لقد رأيتُ للتوّ على ركن الحائط صورة مريعة مرسومة بالطبشور، تعكس هذه المقصلة، والتي ربما هي الآن تُجَهّز من أجلي..

أوشك القنديل على السقوط من بين يدي..

***

12

عدتُ لأجلس بسرعة فوق كومة قشي، وأنا أضع رأسي بين ركبتيَ. ثم اختفى هلعي الطفولي واعتراني فضولٌ غريب كي أستمر في قراءة جداري..

قرب اسم "باباڤوان". انتزعتُ شبكة عنكبوت هائلة، مثقلة بالغبار وملتصقة بزاوية الحائط.

تحت هذا النسيج العنكبوتي، كان هناك أربعة أو خمسة أسماء مكتوبة بخطٍ واضح، من بين أسماء أخرى لم يتبق منها سوى بقع على الحائط:

- " دوتان 1815 – بولان 1818 – جون مارتين 1821 – كاستين 1823 ."

قرأت هاته الأسماء واسترجعت ذكريات مُروِعة..

دوتان الذي قام بتقطيع أخيه إلى أربعة أجزاء، وذهب متسترًا بالليل إلى باريس ليقوم برمي رأس أخيه في نافورة وجذعه في المجاري.

بولان، ذاك الذي قتل زوجته بطريقة وحشية.

جون مارتين الذي أطلق النار من مسدسه على والده العجوز، في الوقت الذي كان فيه والده المسكين يفتح النافذة.

كاستين، الطبيب الذي سَمّمَ صديقه، وظل يعالجه في مرضه الأخير الذي تسبّب له به، وعوض أن يعطيه ترياقًا، كان يعطيه المزيد من السُّمّ.

وبجوار كل هؤلاء، باباڤوان، الأحمق الرهيب الذي كان يقتل الأطفال بطعنات من سكينه في رؤوسهم!

قلت في نفسي، وقُشعريرة الحمى تسري في جسدي:

- ها هم النزلاء الذين مروا هنا قبلي، في هذه الزنزانة. هنا، على نفس البلاط الذي أجلس عليه، فكروا في ساعاتهم الأخيرة، هؤلاء الرجال المصابون بِداء الوَلَعِ بالقتل وسفك الدم..

حول هذا الجدار، في هذا المربع الضيق، خطوا خطواتهم الأخيرة كوحوش فتاكة، لقد أتوا الواحد تلو الآخر، لا تفصلهم عن بعضهم سوى فترات زمنية قصيرة، يبدو أن هذه الزنزانة لا تفرغ أبدًا، ما زالت أمكنتهم دافئة، وأنا من خَلَفَهُم فيها،

وسألتحق بهم بدوري في مقبرة "كلامار" حيث ينمو العشب جيدًا لأنه يرتوي من الدم.

لستُ عرّافًا. ولا روحانيًّا. من الوارد أن هذه الأفكار تزيد الحمى التي أعانيها، ولكن عندما كنت أهذي. بدا لي على حين غرة. أن أسماء هؤلاء القتلة كانت مكتوبة بحروف من نار على الجدار الأسود. تعالى الصفير في أذني شيئًا فشيئًا. وغَشَتْ عَيْنَيّ ومضة حمراء كالدم. وبعدها هُيّئ لي أن زنزانتي صارت مكتظة بالرجال. رجال بهيئات غريبة. كانوا يحملون رؤوسهم الصلعاء بيَدِهم اليسرى. وكانوا كلهم يشيرون إليّ بقبضتهم اليمنى. عدا قاتل أبيه.

أغمضتُ عينيّ بتقزز. وإذ ذاك رأيت كل شيء بوضوح أكثر..

حلم. رؤيا. أم حقيقة؟ كنت سأجَنّ لولا أنني استيقظت في الوقت المناسب..

كنت على وشك السقوط رأسًا على عقب. عندما أحسست بشيء بارد وأرجل مليئة بالشعر تدب فوق قدمي العارية. كانت تلك العنكبوت التي أزعجتُها والتي كانت تخطط للهرب..

كان هذا كفيلًا بتطهيري من الأشباح المرعبة التي استحوذت على روحي. كلا. لم تكن أشباحًا. كان ذلك دخانًا. خيالًا صنعه عقلي الفارغ والمتشنج.

"سراب ماكبث"! الموتى يظلون موتى، خاصة هؤلاء، إنهم يحترقون الآن في الجحيم، والجحيم ليس أبدًا بالسجن الذي بوسعنا الهروب منه.. فلماذا إذن ارتعبت إلى هذا الحد؟

بوابة الجحيم لا تُفْتَح أبدًا من الداخل!

***

13

عاينتُ في الأيام التي خَلَت شيئًا في قمة البشاعة.

كانت الشمس قد أشرقت للتو. وكان السجن مليئًا بالضجيج. كنت أسمعُ أصوات فتح البوابات الثقيلة وإغلاقها. صرير الأقفال الحديدية. احتكاك المفاتيح الكبيرة المتدلية من أحزمة السجانين، واهتزاز السلالم تحت وطأة الخطوات الكثيرة المسرعة. وأصواتًا تنادي - ويتردد صداها في طرفيْ الممرات الطويلة - المسجونين في الزنازين المجاورة ليؤدوا عقوباتهم التأديبية. كانوا مسرورين أكثر من المعتاد. بدا أن سجن بيسيتر كله كان يضحك. يغني. يركض ويرقص.

كنت وحدي صامتًا في هذه الضجة، وساكنًا في هذه الفوضى. كنت أصيخ السمع باهتمام واستغراب.

مرّ سجان..

غامرتُ بمناداته والاستفسار منه: أيقيمون حفلة في السجن؟

أجابني:

- لِنُسَمّها حفلة إذا شئت. إنه اليوم الذي سنقوم فيه بتقييد السُجناء الذين سيغادرون غدًا إلى "تولون ". أترغب في المشاهدة؟ إن هذا سيُسلّيك..

كان ذلك فعلًا، بالنسبة إلى سجين وحيدٍ في زنزانته الانفرادية عرضًا مُثيرًا للاهتمام أكثر من حفل راقٍ يقيمه أثرياء، اعذروني على التعبير البغيض، لكنني قبلتُ هذا العرض الممتع.

أدَّى السجان الإجراءات الاحترازية الاعتيادية ليتأكد من الحفاظ على سلامتي، ومن ثَمّ قادني إلى زنزانة صغيرة فارغة، وخالية من أية أغراض، كانت بها نافذة مُسَيّجَة، لكنها على أي حال نافذة حقيقية، على ارتفاع طولي، ومن خلالها بوسعنا أن نلمح السماء فعليًا.

قال لي:

- هاك، من هنا سترى و تسمع جيدًا، ستكون وحيدًا في مقصورتك الشَّرَفِيّة، تمامًا كالملك..

ثم غادر وأغلق باب الزنزانة بأقفال عتيدة..

كانت النافذة تطل على باحة مربعة فسيحة شيئًا ما، تقود إلى الباحة الرئيسية للسجن، خلفها يوجد مبنى حجري يبلغ علوه ستة طوابق، كان مبنى متداعيًا، عاريًا، وبائسًا لا يسرُّ

الناظر إليه. كانت واجهته تتخللها عدة نوافذ مسيّجة، والتي رأيت عبرها وجوهًا هزيلة وشاحبة ملتصق بعضها ببعض، حتى لكأنها تبدو كحجارة متراصة فوق جدار. كانت كل هذه الوجوه مجتمعة في إطار خاص عبارة عن أسْيِجَة حديدية.

كان هؤلاء المساجين، متفرجين أيضًا على الحفلة المسلية في انتظار أن يأتي دورهم ويصبحون أبطالًا في حفلة مقبلة. بوسعنا القول، إنهم كانوا يبدون كأرواح تقضي عقوبتها في أتون المطهر المؤدي إلى الجحيم. جميعهم كانوا ينظرون في صمت إلى الباحة التي كانت لا تزال فارغة. كانوا ينتظرون، من بين هذه الوجوه الكالحة ذات النظرات المنطفئة. كانت تلمع هنا وهناك بعض العيون الثاقبة، اليَقِظَة والمُتَّقِدة.

انتصفَ النهار، وفجأة فُتِحَ باب جانبي كبير مخصص للعربات. عَبَرَتْهُ عربة يحرسها مجموعة من الجنود المتسخين، هيئتهم مزرية للغاية، يرتدون زيًّا موحدًا أزرق رثًّا، بشريطين أحمرين على الكتفين، وبأحزمة صفراء. دخلت العربة الثقيلة الساحة مُصْدِرة ضجيج الخُرْدة. في نفس اللحظة، وكأنما هذه الضوضاء أيقظت كل ضجيج السجن، طفق المتفرجون عبر النوافذ – الذين كانوا حتى حدود تلك اللحظة صامتين وساكنين – يطلقون صيحات البهجة، ويغنون، ويوجهون تهديدات، ولعنات ممزوجة بضحكات تصم الآذان. كان بوسعنا الاعتقاد بأننا نرى أقنعة شيطانية. علا كل الوجوه تعبير غريب، وخرجت

جميع القبضات من القضبان. صاحت كل الحناجر. وصارت كل العيون ترمي بِشَرَر. لَكَمْ هالتني رؤية هذا الكم من الشَّرر ينبعث من رماد العيون الخابية..

في هذه الأثناء. شرع صغار الضباط – وقد كان بوسعنا تمييز بعض المدنيين الفضوليين بينهم من خلال ثيابهم النظيفة والخوف المرتسم في عيونهم. والذين قدموا من باريس - في العمل بهدوء. صعد أحدهم إلى متن العربة المتهالكة. وألقى لزملائه بالسلاسل. والأطواق الحديدية والسراويل المنسوجة من الكتّان. وبعدها. وزعوا المهام فيما بينهم. بعضهم راحوا ينشرون السلاسل الحديدية التي كانت تسمى بلغة السجن بـ"لحبال الحريرية" . في إحدى جنبات الباحة. أما الاخرون فقد كُلِّفوا بجمع السراويل والقمصان. التي كنا نُلقّبها بـ" التافتا ". فيما راح المسؤولون الرصينون يفحصون – تحت إشراف رئيسهم القصير أو "القبطان" كما كانوا ينادونه – الأغلال الحديدية. ويتأكدون من صلابتها. وسط استهزاء السُّجناء. الذين لم تَعْلُ على أصواتهم سوى الضحكات الصاخبة الصادرة من السُّجناء الذين هيّؤوا هذا " الحفل " من أجلهم. والذين كنا نلمحهم محتشدين خلف القضبان المتشابكة للسجن القديم المطل على الباحة الصغيرة.

حينما انتهت التحضيرات. قدِمَ رجل ذو بذلة مطرزة بخيوط فضية. يدعونه بالسيد المفتش. وأصدر تعليماته إلى مدير

السجن، وبعدها بلحظات، لفظت حوالي ثلاث بوابات منخفضة في نفس الوقت، سُحبًا كثيفة من الرجال البشعين، الذين كانوا يرتدون أسمالًا بالية، تجمعوا في الباحة. لم يكن هؤلاء الرجال سوى السُّجناء..

تضاعفت صيحات الابتهاج بمجرد دخولهم إلى الباحة. بعض هؤلاء السُّجناء الذين صاروا من مشاهير السجن بفضل جرائمهم، خصّهم السجناء المتفرجون بتحيات وتصفيقات حارة، تلقاها السُّجناء المشهورون بشيء من التواضع الممزوج بالفخر، جلّهم كانوا يعتمرون قبعات رديئة صنعوها بأيديهم مستعينين بقش الزنازين، كي يتم تمييزهم في كل المدن التي سيمرون بها في طريقهم إلى مدينة تولون، حظيَ السُّجناء أصحاب القبعات بتصفيقات أكثر حرارة من المتفرجين، اشتدت حماسة السجناء بعد رؤيتهم لسجينٍ شاب يبلغ من العمر حوالي سبعة عشر ربيعًا، وجهه جميل شبيه بوجه فتاة غضّة. غادر زنزانته التي اعتكف بها لثمانية أيام، لينسج من كومة قشه رداء غريبًا غطى جسمه من رأسه إلى أخمصي قدميه، ودخل إلى الباحة وهو يتلوى كأفعى، كان هذا الغلام يشتغل ممثلًا كوميديًّا، قبل أن يُدان بتهمة السرقة. اشتد التصفيق وازداد صياح السجناء لدى مروره، كان من المرعب رؤية تبادُل التحايا الهيجة بين سُجناء الحاضر والمرشحين لأن يخلفوهم في المستقبل.

كان المجتمع ممثَلا هنا من طرف السجانين والفضوليين الهلعين. ولكن بدا كأن الجريمة تهزأ منهم. ومن هذا العقاب الفظيع المحتفى به وكأنها حفلة عائلية.

كان يتم دفع السُّجناء المتقاطرين بين صفيّن من الدرك ليعبروا إلى الباحة الصغيرة المسيّجة. حيث كان ينتظرهم أطباء قدموا ليفحصوهم. كان هذا الفحص الطبي فرصتهم الأخيرة لتجنب السفر، عن طريق اختلاق أعذار صحية، والتعلُّل بأعينهم المريضة، سيقانهم العرجاء، وأيديهم التي عمدوا إلى جرحها وتشويهها. ولكن أعذارهم هذه كانت لا تُجدي نفعًا غالبًا. وكان الأطباء يرون أن صحتهم تؤهلهم للقيام بالأشغال الشاقة. و هكذا، كان يُذعنُ كل واحد منهم لقَدرهِ بلا مبالاة، لينسى بعد دقائق معدودة العجز الذي زعَم للأطباء بأنه سيرافقه طوال حياته.

فُتح باب الباحة الصغيرة مُجدَّدًا، وبدأ أحد الحراس ينادي السُّجناء بأسمائهم المرتبة أبجديًا، ليتوجه كل سجين نحو إحدى زوايا الباحة الرئيسية، ويصطف قرب زميل اختارته المصادفة الأبجدية رفيقًا له. ومن ثم، كل سجين يجد نفسه يواجه ذاته وحيدًا مع أغلاله الخاصة، جنبًا إلى جنب مع غريب، ولو صادفَ أن كان له صديق، فإن السلاسل تفرقهما، وتلك مأساة أخرى تُضاف إلى سلسلة مآسيه..

أُغلِق الباب بعدما بلغ عدد السُّجناء الذين خرجوا إلى الساحة نحو الثلاثين رجلًا، صفّهم أحد الضباط الصغار مستعينًا بعصاه، ورمى أمام كل واحد منهم قميصًا، وسترة، وبنطلونًا من الكتان الخشن، وبعدها أشار إليهم، وشرعوا جميعًا في نزع ثياب السجن ليرتدوا هذا اللِّباس، وهنا وقعت حادثة غير متوقعة جعلت هذه الإهانة تتحوَّل إلى تعذيب..

حتَّى تلك الساعة، كان يبدو كل شيء جميلًا إلى حدٍّ ما، كان نسيم أكتوبر باردًا، ومن حين إلى آخر، كان يخترق السحاب الرمادي شعاع ذهبي، لكن ما إن نزع السُّجناء أسمالهم، ووقفوا عُراة بالكامل أمام الأنظار المريبة للسجَّانين، والنظرات الفضولية للزوار الغرباء الذين كانوا يتجولون بقربهم ليتفحصوا أجسادهم العارية، حتى اسودّت السماء، وبدأت أمطار عاصفية خريفية تهطل على رؤوس السُّجناء المُجَرّدِين من الثياب في ساحة السجن، لتغمر أجسادهم، و تُغرق ثيابهم الرثة الملقاة على الأرض..

انهمر المطر كالسيْل، و لم نعد نرى في الساحة التي خَلَتْ في رمشة عين من الحرّاس والفضوليين سوى السُّجناء العُراة الذين يقطرون ماء على الرصيف المبتل، حل صمت رهيب محل أحاديثهم و ضجيجهم، كانوا يرتعدون و كانت أسنانهم تصطك، أما سيقانهم النحيلة، ورُكَبهم البارزة فقد كانت ترتجف، وكان مثيرًا للشفقة أن نراهم يغطون أطرافهم المُزرقّة جراء البرد بتلك

القمصان والسترات والسراويل التي تقطر ماء. بدا لي أن العُري في حالتهم كان أفضل..

واحد منهم فقط. كان عجوزًا. احتفظ ببعض من بهجته. وصرخ وهو يمسح جسده بقميصه المبتل:

- هذا لم يكن ضمن البرنامج!

ثم غرق في الضحك وهو يُلَوّح بقبضته إلى السماء.

بعدما ارتدوا ثياب الطريق. اقتيدوا جماعات إلى زاوية أخرى من الساحة. حيث كانت تنتظرهم سلاسل ممدودة على الأرض. كانت هذه السلاسل الطويلة والمتينة تعبُرها عرْضِيًّا سلاسل أخرى أقصر منها. وفي طرفها طوق حديدي مربع الشكل. يتم فتحه بالاستعانة بمِفك براغي. ويتم إغلاقه بواسطة مسمار غليظ. ليظل حول عنق السجين طيلة السفر. حينما نرى هذه السلاسل ملقاة على الأرض. تبدو لنا شبيهة إلى حد ما بهياكل أسماك.

أجلسوا السُّجناء فوق الوحل. على الرصيف المغمور بالمطر. وضعوا حول أعناقهم الأطواق الحديدية. و بعدها أتى حدّادان يحملان مطرقتين ثقيلتين. وثبّتا الأطواق الحديدية المحيطة بأعناق السُّجناء بضربات عنيفة من مطرقتيهما بكل برود. كانت لحظة فظيعة. شحبت فيها وجوه أعتى السجناء..

كانت كل ضربة مطرقة تتسبب في اهتزاز ذقن السجين المطوّق عنقه بـ"عِقْد الأشغال الشاقة "، وكان يبدو كأن أبسط حركة سيقوم بها سواء إلى الأمام أو الخلف كفيلة بتهشيم جمجمته والتسبب في تطاير أجزاء منها، وكأن رأسه حبة جوز.

بعد خضوعهم لهذه العملية، أصبحت وجوه السُّجناء مظلمة، وعَمّ السكون، لم نعد نسمع شيئًا عدا صوت احتكاك السلاسل، صيحة استنجاد من حين إلى آخر، والصوت المرعب لهراوات حراس السجن التي يهوون بها على السُّجناء القلة الرافضين الإذعان لمصيرهم، كان هناك بضعة سُجناء ينتحبون، أما الشيوخ فقد كانوا يرتعشون ويعضون على شفاههم ليكتموا عَبَراتهم، كنت أنظر بارتياع إلى كل هذه الوجوه المخيفة المُطَوّقة بالحديد.

لاح شعاع الشمس، بدا وكأنه يشعل النار في تلك الرؤوس، قام السُّجناء في نفس اللحظة وكأنهم خرجوا للتو من نوبة صرع، كانت السلاسل مربوطة بإحكام إلى أيديهم، وشكّلت حلقة ضخمة حول جذوعهم، تعبت عيناي من مراقبة دوران السُّجناء حول أنفسهم، وهم يغنون أغنية خاصة بالسجن، تارة بلَحن حزين، شَجيّ، وتارة أخرى بلحن متذمر، ممتزج بحماسة و تَحَدٍّ، كنا نسمع بين الفينة والأخرى صرخات حادة، وضحكات صاخبة متقطعة ولاهثة تختلط بالكلمات الغامضة، وبعدها هتافات مُحرّمَة، والسلاسل التي يصطدم بعضها ببعض محدثة إيقاعًا

كجُوقة موسيقية تصاحب هذا اللحن. لو كنت سأبحث عن تصور للسّعير ما كنت لأجد صورة أفضل ولا أسوأ من هذا.

جلبوا جفنة كبيرة إلى الساحة. قاطعَ السجانون رقصة السُّجناء بضربات من عصيّهم. واقتادوهم إلى تلك الجفنة التي رأيت فيها سائلًا قذرًا يتصاعد منه البخار تسبح فيه أعشاب لم أحدّد ماهيتها. أكلوا تلك القذارة. وبعد أن أنهوا وجبتهم الباعثة على الغثيان. ألقوا بما تبقى من "حسائهم" وخبزهم العطن على الأرض. واستأنفوا رقصهم وغناءهم. من الواضح أنهم يمنحونهم هذا الحق في يوم التقييد والليلة التي تليه.

كنت أراقب هذا الحفل الغريب بفضول كبير للغاية. واهتمام بالغ. حتى إنني نسيت نفسي ومأساتي الشخصية. هزّني شعور عميق بالشفقة. وجعلتني ضحكات هؤلاء السُّجناء المساكين أنفجر بالبكاء..

على حين غرّة. وأنا غارق في بحر رثاء غيري. لمحتُ دائرة السُّجناء الراقصين المغنين تتوقف وتصمت. قبل أن تتوجه عيونهم صوب النافذة التي كنت أشاهد منها "الحفل". ثم شرعوا في الصراخ ببهجة مضاعفة وهم يشيرون إليّ:

- المحكوم عليه بالإعدام! المحكوم عليه بالإعدام!

صُعِقْتُ..

لا أعلم كيف تعرّفوا إليّ خلف النافذة المسيّجة..

- صباح الخير! مساء النور!

صاحوا بسخرية قاتمة. أصغرهم سنًّا الذي كان محكومًا عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة، كان وجهه لامعا، وممتلئًا. نظر إليّ بغبطة قائلًا:

- إنه محظوظ، ستقضمه أنياب الموت! الوداع أيها الرفيق!

لا أستطيع وصف ما كان يحدث بداخلي، كنتُ رفيقهم بالفعل، ساحة غريف كأنها توأم تولون، بل إنني كنت في منزلة أدنى من منزلتهم، كانوا يشرّفونني بتلقيبهم إياي بالرفيق، سَرَتْ قُشعريرة في جسدي..

أجل، رفيقهم، وبعد بضعة أيام من المحتمل أن يتفرجوا بدورهم على حفلي الخاص..

ظللت ملتصقًا بالنافذة، ساكنًا، متسمّرًا في مكاني، مشلولًا، لكن حينما رأيت الرفاق الذين يجرون سلاسلهم الغليظة، قادمين نحوي وهم يهتفون بتودّدٍ شرير، عندما سمعت الضجيج غير المحتمل لسلاسلهم، صرخاتهم، وخطواتهم المثقلة التي زلزلت الساحة، خُيّل إليّ أن هذه الشرذمة من الشياطين تتسلق سياج نافذة زنزانتي الحقيرة، أطلقتُ صرخة، وارتميتُ على الباب بعنف كان من الممكن معه أن ينكسر، لكن ما من مجال للهرب، صَدَمْتُ رأسي بالباب وناديتُ بكل قوتي الحارس ليأتي ويُنجدني بلا جدوى، كانت الأقفال العتيدة غير قابلة للكسر، بعدها، هُيّئ

لي أنني أسمع الأصوات المرعبة تقترب أكثر فأكثر. وأرى رؤوسهم المُنَفِّرَة تلوح من وراء النافذة. أطلقتُ صرخة فزع من جديد. ثم سقطت مَغْشِيًّا عليّ..

***

14

عندما استعدتُ وعيي، كان الوقت ليلًا، وجدتُ نفسي مستلقيًا على سرير حقير، وعلى الضوء المرتعش لمصباح كان يتدلى من السقف تبينتُ وجود أسرّة حقيرة أخرى تَحُفّ بسريري من الجانبين. فهمتُ أنهم قاموا بنقلي إلى مستشفى السجن..

بقيت مستيقظًا لبضع لحظات، بذهن خالٍ من الأفكار والذكريات. غمرني الفرح لأنني كنت مضطجعًا على سرير، في الواقع، قبل أن يحدث ما حدث، وأجد نفسي محكومًا عليَّ، كانت رؤية سرير مستشفى السجن القذر هذا ستجعلني أتراجع إلى الخلف من فرط الاشمئزاز والتقزز، لكنني اليوم لم أعد ذلك الرجل..

كانت الشراشف رمادية وخشنة الملمس، واللحاف رقيقًا ومليئًا بالثقوب، وكان بوسعي أن أشم رائحة العفونة تعبق من الفراش، الذي تناوب عليه السجناء المصابون بشتّى العِلَل، لكن، من يأبه؟ إذ كان بوسع أعضاء جسمي المتعب أن تتمدّد وترتاح أخيرًا ولو تحت هذه الشراشف الرديئة. بعدما حظيت

بهذا اللحاف الرقيق. أحسست بالبرد الفظيع الذي استوطن عظامي يتلاشى. وعدت للنوم..

في الفجر. أيقظني ضجيج عالٍ قادم من الخارج. وبما أن سريري كان قريبًا من النافذة. اعتدلت قليلًا عساني أتمكن من معرفة ما يحدث..

كانت نافذة المستشفى تطل على الساحة الكبيرة لسجن بيسيتر. المكتظة بالناس. وكان هناك صفّان من الجنود يحاولون بجُهد إزاحة الحشد ليتمكنوا من إفساح الطريق الضيق الذي يشُق الساحة. كي يمر الجنود السائرون ببطء والعربات الخمس المُحمّلة عن آخرها برجال. استنتجت أنهم المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة الذين كانوا يُرحَلون ليعملوا بلا هوادة كالعبيد بمدينة تولون.

كانت العربات القديمة المخصصة لنقل السُّجناء مكشوفة. كانت بداخل كل واحدة منها مجموعة من هؤلاء البائسين المربوطة سلاسلهم بعضها ببعض. وكانوا يجلسون جنبًا إلى جنب متلاصقين. وكأنه أُلْق بعضهم فوق بعض. لاحظت أنه كان هناك ضابط واقف في مؤخرة العربة. وهو يحمل بندقية يُصوّبها نحو السُّجناء. كنا نسمع صوت السلاسل الرهيبة. وكلما اهتزّت العربة. كنا نرى رؤوس السُّجناء تهتز بعنف. وأرجلهم الحافية تتأرجح..

كان البرد قارسًا، وزخّات المطر تتسلل عبر العربات غير المسقوفة، لتُبلّل سراويل السُجناء الأشقياء، إلى أن التصقت سراويلهم المنسوجة من الكتان الرديء على أفخاذهم وسيقانهم، واستحال لونها الرمادي أسود كالحًا. أما لِحاهم الكثّة، ورؤوسهم شبه الحليقة فقد كانت تقطر ماء، امتقَعَت وجوههم، هُيّئ لي أن لونهم صار أرجوانيًا، كان بوسعنا رؤية ارتعاش أجسادهم الهزيلة، واصطكاك أسنانهم من فرط البرد والسخط العارم الذي اجتاحهم، الأقسى من هذا أنهم كانوا عاجزين كليًّا عن الحركة، بسبب تلك السلاسل الفظيعة المحيطة بأجسادهم، وتلك الأطواق الحديدية المرعبة التي سُمّرَت في أعناقهم، والأنكى أن بعضهم كان موثوقًا إلى بعض حتى ليبدو للمرء أنهم صاروا جسدًا واحدًا من فرط التحامهم، كانوا رجالًا مساكين تم إجبارهم على التنازل عن التفكير بسبب الطوق الملتف حول أعناقهم الذي شلّ عقولهم وألغى تفكيرهم، بوسعنا القول إنهم حُكم عليهم بالإعدام البطيء، البؤساء، كانوا شبيهين بحيوانات لا تفكر أبدًا، ولا تحتاج سوى إلى قضاء حاجتها وإلى ملء بطونها في ساعات محددة، هكذا، وهم ساكنون كالأموات، نصف عُرَاة، برؤوس مكشوفة وأقدام حافية، سيبدؤون سفرهم الذي سيمتد لخمسة وعشرين يومًا من العذاب، وهم "مُحَمّلون" على نفس العربات المتهالكة، ويرتدون نفس اللباس سواء في الحَرّ أو القَرّ..

دار بين الحشد وراكبي العربات حوار ساقط. شتائم من جهة. إهانات من جهة أخرى. لعنات من الطرفين. ولكن بإشارة من الضابط. رأيت ضربات الهراوات تنهال بشكل اعتباطي على رؤوس وأكتاف السُّجناء. ساد النظام. لكن العيون كان تطفح بالكره وبالرغبة في الانتقام. وكانت قبضات هؤلاء التعساء متشنجة. وكأنهم كانوا يرغبون في تسديد لكماتٍ موجعة إلى جلادهم.

أخيرًا. اختفت العربات الخمس. المحروسة بالفرسان والمشاة. بعدما عبرت تباعًا البوابة العالية لسجن بيسيتر. ثم تبعتها عربة سادسة محملة بسلاسل إضافية. قدور نحاسية ومواقد بدائية. بعض الحُرّاس الذين تأخروا في المقصف حيث ملؤوا بطونهم. سارعوا راكضين ليكونوا آخر الملتحقين بالرّكْبِ. تفرق الحشد. بعدما انتهى الحفل الغرائبي. بدأت أصوات العجلات الثقيلة للعربات ووقع حوافر الخيول فوق رصيف شارع "فونتين بلو" تخفت تدريجيًا. وكذا اختفت أصوات السياط والسلاسل. وصيحات أفراد الشعب الذين كانوا يتمنون أمنيات مريعة للسُّجناء المسافرين.

وهنا. ستبدأ سلسلة عذاباتهم. وشقاؤهم السّيزِيفي الأبدي..

ما الترهات التي كان يقولها لي المحامي إذن؟ الأشغال الشاقة المؤبدة. آه. أجل. أفضّل الموت مئة مرة على أن يلتفّ حول

عنقي الطوق الحديدي للمحكوم عليهم بالإعدام بهذه الأشغال اللاإنسانية، أفضّل أن أسلّم عنقي للمقصلة، لأرتاح نهائيًا من عذاباتي الأرضية، ولو كان مصيري أن أقبع إلى ما لا نهاية في الجحيم السفلي..

***

15

لسوء الحظ، لم أكن مريضًا، لذا كان يتحتم عليَّ مغادرة المستشفى في اليوم المُحدَّد، لتتلقّفني زنزانتي مُجدَّدًا..

لست مريضًا، في الواقع، أنا شابٌّ، قوي وذو صحة جيدة، الدم يسري بانسيابية في عروقي، وكل أعضائي تعمل جيدًا وتستجيب لرغباتي كلها، أنا أتمتع بصحة جسدية وعقلية جيدتين للغاية، وبنيتي الجسمانية القوية تُتيح لي أن أحيا لمدة طويلة، أجل، كل ما أقوله لكم حقيقي، ورغم ذلك، أنا أعاني مرضًا، مرضًا قاتلًا، من صنع البشر..

مذ غادرت المستشفى، حضرتني فكرة مُدمِية، فكرة وضعتني على حافة الجنون، وهي أنه ربما كان بإمكاني الفرار لو أنهم تركوني بضعة أيام في المستشفى، لكن الأطباء والممرضات لم يتركوني دون مراقبة، بدا أنهم يشفقون عليّ ويرثون لحالي لأنه قُدِّرَ لي أن أموت بتلك الطريقة المُرَوّعة وأنا لا أزال شابًا في مقتبل العمر، لذا غمروني بعطفهم، وشملوني برعايتهم، طوال

الوقت كانوا متحلّقين حول سريري، وهم يتطلعون إليَّ بفضول مشوب بالقلق، وبعد؟ ماذا كان بوسعهم فعله من أجلي، كانوا قادرين على أن يشفوني من الحمى وحسب، لكن، هل كان بمستطاعهم أن ينقذوني من عقوبة الإعدام؟ ومع ذلك، كانت مساعدتهم لي على الإفلات من نَصْلِ المقصلة ممكنة، ماذا كان سيحدث لهم لو أنهم عمدوا إلى ترك باب المستشفى مفتوحًا، لأحاول الهرب والنجاة..

لم تعد لديَّ أية فرصة الآن! سيتم رفض طلب الطعن الذي قدّمته لا محالة، لأن كل أطوار قضيتي جرت كما يجب وانتهى الأمر: الشهود قدّموا إفاداتهم، المحامون قدّموا مرافعاتهم وبذلوا ما في وسعهم، والقضاة نطقوا بالحكم الذي كان لزامًا عليهم أن ينطقوا به، لا أعَوِّل على أن يُقْبَل طلبي، فقط لو..

أتظاهَرُ بالجنون؟ لا..

فقدتُ الأمل، النقض يُعدُّ حبلًا يتركك تتأرجح فوق هاوية سحيقة متأهبة لابتلاعك، لذا تفتح جوفها من أجل استقبالك كل يوم أكثر فأكثر..

ترى.أيستلزم انتظار سقوط المقصلة على رأسي ستة أسابيع؟

وماذا لو عَفَوا عني؟ أتراني أحظى بعفو؟ من سيمنحني إياه؟ وكيف؟ ولماذا؟ يستحيل أن يمنحوني عفوًا..

الآن، لم تتبقّ لي إلا ثلاث خطوات أخطوها نحو قبري: بيسيتر، المحكمة الثورية، ثم ساحة غريف..

16

خلال الساعات القليلة التي أمضيتُها في مستشفى السجن، جلست بمحاذاة النافذة، لأستمتع بأشعة الشمس التي ظهرت من تحت السحاب، أو فلنقل بالأحرى لأنعم بالقليل من الأشعة التي سمحت لها قضبان النافذة بأن تصل إليَّ..

كنت هناك جالسًا، أضع رأسي الثقيل بين راحتيْ يديّ، اللتين بدتا وكأن حمولة رأسي المزدحم بالأفكار كانت فوق طاقتهما، أسندتُ مرفقيّ على ركبتيّ، وأطلقتُ ساقيّ على قضبان النافذة، أحسست وكأن الإغماء الذي تعرضتُ له في يوم تقييد السُّجناء سَحَقَ عظامي وسائر أعضائي. يومها، تسببت لي رائحة السجن النتنة في نوبة اختناق أقوى من نوبات اختناقي السابقة، كان ضجيج سلاسل المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة لا يزال يتردد في أذنيّ، لقد سئمت بِشدّة سجن بيسيتر الفظيع، آملُ أن يكون الله رحيمًا بي، ويرسل لي على الأقل عصفورًا ليشدو لي هنا، ولو في السطح المقابل..

لم أصدِّق أن الله قد استجاب لأمنيتي على الفور. في نفس اللحظة، تناهى إلي صوت ما. لم يكن صوت تغريد عصفور. كان أجمل بكثير، صوت عذب، نقي، مخملي، كأنه لصبيّة لا تتجاوز الخامسة عشرة من العمر. رفعتُ رأسي بحماسة وأصختُ السمع بشغفٍ إلى الأغنية التي كانت تغنيها. كانت مكتوبة بلغة السجن، وكان لحنها رتيبًا، حزينًا. كانت تشبه مَرْثِيَة مُبْكِية. ها هي ذي كلماتها:

"حدث ذلك في زقاق "ميل "

حيث أُلقى عليَّ القبض

ثلاثة ضباط من القسوة بمكان..

يا لبؤسي!

طرحوني أرضًا

وكبّلوا يديّ بأصفادهم المُدْمية.."

خالجني شعور بالمرارة وأنا أسمع ذلك الصوت الشجيَ يتابع:

"يا لبؤسي. بسبب الجُرْمِ الذي اقترفته

لقد قطعتُ شجرة (قتلت رجلًا)"

يا ويلي..

وبعدما سالت دماؤها

سرقتُ ما كان بحوزتها

ونزعتُ ساعتها من معصمها

لم أعبأ ببرودتها الصقيعية

وزيّنتُ بها معصمي بفخر

بل إنني سلبتها حتى رباط حذائها..

يا لجُرْمِي الشنيع..

والآن، لقد وصلت إلى نهاية طريقي

أنا اللص، القاتل الحقير..

زوجتي المكلومة

ذهبت إلى ڤرساي

لترتمي بيأسٍ تحت أقدامهم

بعد أن تخلّتْ عن كبريائها النسائي

كي تتوسل إليهم أن يعفوا عني

ويخرجوني من السجن

يا لجُرمي، يا لبؤسي..

آه، فقط لو أغادر حبْسي

يا لبؤسي..

سأتوّجُ زوجتي ملكة. لن أغضبها أبدًا

وسأغمرها بالمجوهرات

سأجعلها ترتدي ثيابًا ملكية

سأنحني لألبسها جوارب حريرية

يا للجُرْمِ الذي ارتكبتُه..

ترى هل من الممكن أن تتحقق أمنيتي؟

في أن أغادر السجن وأفلت من المشنقة

لأزيّن رأس زوجتي / ملكتي بتاج مُرصّع

وأراقصها

رقصة لا تشبه أبدًا رقصة الموت

التي حكموا عليّ بأن أؤديها..

يا لجُرْمِي. يا لبؤسي!"

لم أسمع بقية الأغنية ولم أكن أساسًا قادرًا على الاستماع إلى المزيد. كان معنى هذه الشكوى الفظيعة بالنسبة إليّ نصف مفهوم ونصف مُبْهَم: مقاومة قاطع الطريق هذا لرجال الشرطة. هذه الرسالة الرهيبة: (قطعتُ شجرة وأنا الآن مُقَيّد). هذه المرأة التي تركض نحو فرساي لطلب العفو من صاحب الجلالة الذي يرفض تمتيع هذا الجاني به. مما يجعله مُهدَّدًا في كل وقتٍ بأن

يرقص رقصته الأخيرة مع الموت، وكل هذا مُغَنًّى بطريقة جد ناعمة ومؤدى بأعذب صوت تناهى إلى مسامعي وأطربني وتركني مُسَرْبَلاً بالحزن، متجمد الأطراف، مُدَمّرَ الأحاسيس..

كل هذه الكلمات المريعة التي خرجت من هذا الثغر الصغير الزهري كانت مقرفة، كالبصاق الذي تُخَلّفُه حشرة مقززة على وردة يانعة..

لا أستطيع وصف ما اعتراني، كنت في نفس الوقت مجروحًا ومُواسى، لغة السجن الشبيهة بلغة أقلية عالقة خارج الزمن في كهف، هذه اللغة الدامية، المنحطة، البشعة، مقترنة بصوت صبية جمع بين براءة الأطفال ودلال النساء، كل هذه الكلمات المشوهة وذات الصياغة الرديئة مغنّاة بإيقاع جميل لا تشوبه شائبة..

آه، إن السجن لمكان مريع وبه نوع من القذارة التي تلطخ كل شيء، كل شيء يذوي بداخله، حتى أغنية فتاة في ربيعها الخامس عشر! إذا وجدتم طيرًا بداخله، فإن جناحه سيكون حتمًا ملطخًا بالوحل، وإذا ما قطفتم إحدى الورود الجميلة من حديقته واستنشقتموها، ستجدون رائحتها عطنة..

***

17

آه. لو تسنى لي الهرب. كم سأركض عبر الحقول! لا. لا ينبغي أن أركض. هذا سيلفت انتباههم إليَّ ويجعلهم يَشُكّون في أمري. على العكس تمامًا. ينبغي أن أمشي بتؤدة. برأس مرفوع وأنا أغني. وأن أحرص على أن تكون لدي بلوزة قديمة زرقاء بمربعات حمراء لتضمن لي تنكُرًا جيدًا لأن كل الفلاحين الذين يعملون في الأرجاء يرتدون مثلها.

أعلم أنه بالقرب من جماعة "أركوي" ثمة الكثير من الأشجار الكثيفة بمحاذاة المستنقع. كنت أذهب لأصطاد هناك ضفادع كل يوم خميس مع رفاقي. هناك سأختبئ حتى يعم الظلام..

بحلول الليل. سأستأنف رحلتي. سأذهب إلى "ڤينسان". لا. سيمنعني النهر من العبور إليها. سأذهب إلى " أرباجون ". أو سيكون من الأفضل أن أتَّجه صوب "سان جرمان" ومنها إلى الهافر. وأصعد على متن سفينة توصلني إلى إنجلترا. هراء! ما إن

أصل إلى "لونجومو " حتى يمر دركي بالقرب مني ويطلب جواز سفري، وسيكشف أمري لا محالة!

آه، أيها البائس الحالم، فلتبدأ إذن بتحطيم هذا الجدار السميك الذي يحول دونك ودون حريتك، الموت! الموت هو كل ما ينتظرك..

يحضرني الآن بحسرة أنني قد قَدِمْتُ إلى بيسيتر وأنا طفل بريء، لأتفرج على آباره العميقة السوداء، وعلى المجانين الذين يقبعون فيه، يا لسخرية القدر!

***

18

عندما كنت أكتب ما سبق، خفت مصباحي وطلع النهار. دقت ساعة الكنيسة الصغيرة معلنة عن حلول السادسة صباحًا.

ما معنى هذا؟ حارس السجن دخل الآن إلى زنزانتي. نزع قبعته. ألقى عليَّ التحية. اعتذر عن إزعاجي. وسألني - وهو يحاول بكل ما أوتي من جهد أن يلطِّف نبرة صوته الأجش - ماذا أريد أن أتناول في وجبة الفطور.

سَرَتْ قُشعريرة في جسدي. ترى هل حان موعد إعدامي؟

***

19

سَيَتِمّ إعدامي اليوم!

مدير السجن بنفسه أتى لزيارتي وسألني كيف يستطيع أن يخدمني ويسعدني، وعبّر لي عن رغبته في ألا أرحل وأنا أحمل ضغينة أو شكوى منه أو من مرؤوسيه. سألني باهتمام عن حالتي الصحية وكيف قضيت الليلة المنصرمة. وهو يودعني ناداني بـ"سيّدي"!

سيتم إعدامي اليوم!

***

20

لا يظنُّ مدير السجن أن لديَّ شكوى منه أو من مرؤوسيه. إنه مُحِق. سيكون من السيئ أن أشتكي: لقد أدوا عملهم على أكمل وجه. وقاموا بحراستي جيدًا وبالاعتناء بي. ثم إنهم كانوا مؤدبين معي عند وصولي وعند حلول موعد مغادرتي. ألا يجب عليَّ أن أكون مسرورًا؟

مدير السجن الطيب. بابتسامته الوديعة وكلماته المواسية. ونظراته المخادعة المتلصصة. ويديه العريضتين المكتنزتين. إنه تجسيد السجن. إنه بيسيتر لو كان رجلًا! صرت أرى كل شيء حولي يستحيل إلى سجن. أرى السجن يتخذ كل الأشكال والهيئات ابتداء من الهيئة البشرية مرورًا بشكل القضبان والأقفال. حتى هذا الجدار ليس سوى سجن من حجر. وهذا الباب سجن من خشب. وهؤلاء الحراس هم السجن بلحمه وشحمه. السجن مخلوق مريع. كامل. غير قابل للتجزيء. نصف منزل. نصف رجل. وأنا فريسته. إنه يحتويني. يعصرني بأغلاله.

ويحبسني داخل جدرانه الأسمنتية، يكبلني، ويرصدني بعيونه التي لا تنام..

آه، أنا البائس، ما الذي سأؤول إليه؟ ماذا سيفعلون بي؟

***

21

أنا هادئ الآن. انتهى كل شيء. انتهى جيدًا. لقد خرجت من حالة القلق الفظيع الذي تسببت لي فيها زيارة المدير لأنني أعترف: كنت لا أزالُ على قيد الأمل. الآن. لله الحمد. لم أعد آمل أي شيء..

إليكم ما جرى منذ لحظات:

في اللحظة التي دقَت فيها الساعة السادسة والنصف - لا. كانت بالضبط السابعة إلا ربعًا -فُتِح باب زنزانتي ودخل عجوز بشعر أبيض. يرتدي بُرنُسا بنيًّا. فتحه قليلًا. لمحت تحته رداء كهنوتيًا. كان كاهنًا إذًا..

لم يكن هذا الكاهن قس السجن. كان هذا مرعبًا. جلس قبالتي وعلى وجهه ابتسامة طيبة. ثم هز رأسه ورفع عينيه نحو السماء. أعني نحو سقف الزنزانة. لقد فهمت ما أتى لأجله..

سألني:

- أأنت مستعدٌّ يا بُنَيَّ؟

أجبته بصوتٍ واهن:

- لست مستعدًا.. ولكن افعلوا ما تشاؤون ..

في تلك اللحظة، اضطربت رؤيتي، وسرى عرق بارد في سائر أعضاء جسمي، أحسست بصدغيَّ ينتفخان، وامتلأت أذناي بالطنين..

وأنا أترنّح في مكاني كشِبْه نائم، كان العجوز الطيب يتكلم، هذا على الأقل ما خُيّلَ إليَّ، وأظنُّ أنني رأيته يحرّك شفتيه ويديه وفي عينيه لمعان غريب..

انفتح الباب مرة ثانية، انتزعني صوت الأقفال من ذهولي، وقَطَع خطبة الكاهن، تقدَّم سيد آخر يرتدي لباسًا أسود مرفوقًا بمدير السجن، اقترب مني وحيّاني بحرارة، كانت تعلو وجهه مسحة من الحزن الرسمي الخاص بالجنائز، كان يمسك في يده ورقة ملفوفة بعناية، قال لي بابتسامة مجاملة:

- سيدي، أنا مُفَوّض قضائي في المحكمة العليا لباريس، أتشرف بِحَمْل هذه الرسالة إليك من طرف السيد المدعي العام..

بعد مرور الصدمة الأولى، عاد إليّ صفائي الذهني وأجبته:

- إنه السيد المدعي العام الذي طالب برأسي بإلحاح؟ إنه لشرف عظيم لي أن يراسلني، أتمنى أن يسُرّه موتي للغاية، لأنه

سيكون من القاسي بالنسبة إلي أن أفكر في أنه طلب هلاكي بحماسة شديدة، في حين أنه لن يبالي بموتي..

قلتُ كل هذا وتابعتُ بصوت حازم:

- اقرأ سيدي!

شرع في قراءة نصٍ طويل وهو يبدو كأنه يُلَحّن نهاية كل سطر، ويتردد وسط كل كلمة.

كان ذاك النصُّ رسالة رفض طلب النقض الذي قدمته.

أردف المفوض بعدما انتهى من تلاوة نصِّه، دون أن يكلف نفسه عناء رفع عينيه عن ورقته المختومة:

- سيتم تنفيذ هذا القرار اليوم، في ساحة غريف، سنتوجه في تمام الساعة السابعة والنصف إلى المحكمة الثورية، سيدي العزيز، هل لك أن تتكرم وتتبعني؟

منذ بضع لحظات، توقفت عن الاستماع إليه، مدير السجن كان يتحدث مع الكاهن، كانت عينا المفوض لا تزالان مثبتتين على ورقته، أما أنا، فقد كنت أوجّه نظري صوب الباب الذي تُرك مواربًا..

- آه، أيها البائس، ينتظرك أربعة جنود يحملون بنادقهم في الممر، قلت لنفسي.

كرر المفوض سؤاله لي، وهو ينظر إليَّ هذه المرة، أجبته:

- متى أردت، أنا تحت أمرك..

حيّاني قائلًا:

- سيكون لي شرف العودة لاصطحابك معي بعد نصف ساعة.

وبعدها، تركوني وحدي.

أما من وسيلة للهرب، يا إلهي؟ أية وسيلة! يجب أن أهرب، ينبغي أن أهرب على الفور

من الأبواب، من النوافذ، من السقف المتداعي! حتى ولو خلّفتُ قطعًا من لحمي على أعمدة السقف!

آه، اللعنة! تبًّا! يا لَحَظّي التعيس! تلزمني أشهر لأحفر هذا الحائط بالأدوات المناسبة، في حين أنني لا أمْلِكُ ولو مسمارًا واحدًا. ولم يتبقَ لي حتى ساعة واحدة في هذا السجن الجحيمي..

***

22

(من المحكمة الثورية)

هأنذا نُقلت، كما يقول المحضر.

ولكن الرحلة تستحق أن تُحكى..

دقت الساعة السابعة والنصف، حينما عاد المفوض من جديد إلى باب زنزانتي، وقال لي:

- سيدي، أنتظرك..

للأسف، كان ينتظرني هو وآخرون!

نهضتُ، خطوت خطوة، هيئ لي أنني لن أستطيع أن أخطو خطوة أخرى، لأن رأسي كان ثقيلًا وساقاي ضعيفتين. ومع ذلك تحاملت على نفسي، وسرتُ بخطى شبه واثقة. قبل أن أغادر زنزانتي، ألقيت عليها نظرة أخيرة – لقد أحببت زنزانتي وتعلقت بها – بعدها، تركتها فارغة ومفتوحة، مما جعلها تبدو استثنائية..

على كل حال، لن تبقى فارغة لمدة طويلة. سمعت السجانين يقولون إنها ستستقبل سجينًا جديدًا هذا المساء. محكومًا عليه بالإعدام هو الآن غالبًا في المحكمة الثورية التي سَتبُتّ في مصيره.

التحق بنا الكاهن في الممر. كان قد تناول فطوره للتو..

أمسكَ مدير السجن يدي وصافحني بِرِقّة وأنا أتأهب للمغادرة. ثم عَزّزوا حراستي بأربعة جنود.

أمام باب مستشفى السجن، صاح عجوز يزحف نحو الموت، قائلا وهو ينظر إليّ:

- إلى اللقاء!

وصلنا إلى الساحة. تنفست بعمق. وشعرت بالتحسن..

لم نَسِرْ طويلًا في الهواء الطلق. كان ثمة عربة سوداء بانتظارنا في الساحة. نفس العربة التي جلبتني إلى هنا فور انتهاء محاكمتي. عربة متداعية مستطيلة الشكل، مقسّمة إلى قسمين بشباك حديدي عمودي سميك. إلى درجة يهيأ لنا معها أنه باب منسوج بها. كل قسم من العربة لديه بابه الخاص. باب واحد أمامي، والثاني باب خلفي. كانت العربة كلها جد متسخة، جد كالحة وجد مُغبرة. حتى إن العربات المخصصة لنقل الفقراء لتبدو عربات ملكية فخمة مقارنة بها.

قبل أن أُحشر في هذا " القبر " المزود بالعجلات، نظرت مُجدَّدًا إلى الساحة نظرة يائسة. بدا لي أن جدران السجن تتداعى، كانت الساحة الصغيرة المحفوفة بالأشجار مكتظة بالمتفرجين الذين كان عددهم يفوق عدد المتفرجين الذين أتوا من قبل ليستمتعوا بمشاهدة "حفل" المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة. ترى هل احتشد الناس منذ ساعات الصباح الأولى؟

ومثل اليوم الذي قُيّد فيه السُجناء التعساء ليرحّلوا إلى تولون، كانت تسقط زخات مطرية خفيفة وباردة. من الوارد أن الأمطار ستهطل طيلة اليوم، بل قد تستمر حتى بعد إعدامي.

كان الطريق موحلًا، والساحة مغمورة بالمياه، لَكَمْ استمتعت برؤية الحشد يغوص في الوحل!

وأنا أصعد على متن العربة، قالت عجوز ذات عينين رماديتين:

- أحب التفرج على المحكوم عليهم بالإعدام أكثر من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة. أجد هذا أفضل بكثير!

أشاطرها الرأي، إن "حفلي" تسهل متابعة مجرياته، بنظرة واحدة قصيرة ينتهي كل شيء، بسرعة البرق، إنه أكثر جمالية وأكثر إراحة للأعين، ولا شيء فيه قادر على تشتيت انتباه المتابعين، إذ ليس هناك سوى رجل واحد، يفوق بؤسه بؤس كل

المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة مجتمعين. مما يجعل " الحفل "مُرَكّزا أكثر. كشَراب قوي بنكهة ألذ..

تحركت العربة مصدرة صوتًا مكتومًا وهي تعبر البوابة الكبيرة للسجن. لتنطلق إلى الشارع بعد أن أوصِدَت بوابة بيسيتر الثقيلة خلفها. تملكني الهلع. كرجل غشيته غيبوبة وفقد قدرته على الحركة والصراخ وهو يسمعهم يهيلون التراب عليه. أصغيتُ وأنا شبه مُغَيَّب إلى أصوات الأجراس المعلقة في أعناق الخيول التي تجر العربة. كانت تصدر رنينًا بإيقاع منتظم. وكانت عجلات العربة هي الأخرى تصدر ضجيجًا غير محتمل كلما اصطدمت عجلاتها بطريق غير مُرَصوف. وكنت أسمع أيضًا وقع حوافر جياد العسكر الذين يرافقون "موكبي". و ضربات سوط الحوذي. كان كل هذا شبيهًا بدوامة محيطة بي من كل جانب. تبتلعني رويدًا رويدًا..

عبر السياج الماثل أمامي. ثبتت عينيّ بطريقة آلية على الكتابة المحفورة بأحرف كبيرة فوق بوابة ضخمة من أبواب بيسيتر:

- "دار العجزة"

قلت لنفسي:

- أنظر. يبدو أن هنالك أناسًا يشيخون هنا!

وأنا بين صحوة وغفوة، ظللت أقلّب هذه الفكرة من جميع النواحي في ذهني المثقل بالآلام، فجأة، تغيّر المنظر بعد انعطاف العربة، ولاحت لي أبراج "نوتردام" الزرقاء، نصف المختفية تحت ضباب باريس، وفي ذات اللحظة، تغيرت الأفكار العابرة لذهني، وصرت أفكر في هذه الأبراج عوضًا عن بيسيتر، رددت في نفسي وأنا أبتسم ببلادة:

- يا له من منظر جميل يراه أولئك الرجال الذين يرفعون العلَم فوق هذا البرج!

أظنُّ أنه في هذه اللحظة بالتحديد، شرع الكاهن في التحدث معي، تركته يتحدث إليّ وأنا أنصت لكلماته بصبر، كانت أذناي ممتلئتين بضجيج العجلات، حوافر الخيل، وسوط الحوذي، وأُضيف ضجيج الكاهن ليزيد انزعاجي.

استمعت في صمت إلى شلال هادر من الكلمات الرتيبة، المملة، التي كان لها تأثير مُنَوّم عليّ شبيه بِخرير نافورة، كانت كلماته ثابتة كأحجار أو أصداف ملقاة على قارعة الطريق، استيقظت فجأة من غفوتي تحت تأثير الملل على الصوت المتقطع للمفوّض، الذي كان جالسًا في مقدمة العربة، وهو يقول بلكنة شبه مسرورة بعدما استدار نحو الكاهن:

- إذن أبتاه، هل من جديد؟

استمر الكاهن في التحدث معي بلا انقطاع. لأنه لم يسمع ما قاله له المفوض. بسبب انهماكه في الحديث. وضجيج العربة العالي الذي حال دونه ودون سماع أي صوت آخر

عدا صوته. لذا. لم يُجِب المفوض.

علا صوت المفوض مُجدَّدًا ليغطي على ضجيج العجلات. وأردف:

- هيه. هيه. يا لها من عربة جحيمية. جحيمية بالفعل. لا تُطاق!

وتابَعَ:

- اللعنة! إن صوتها المجلجل يمنعنا من سماع بعضنا بعضًا. ماذا كنت أريد أن أقول؟ آه. أبتاه. هل تعرف أهم خبر في باريس اليوم؟

قال الكاهن الذي استرجع سمعه أخيرًا:

- لا. لم يكن لديَّ متسع من الوقت لأقرأ صحف هذا الصباح. لكنني سأحرص على تصفحها هذا المساء. عندما أكون منشغلًا هكذا طوال اليوم. أوصي البوّاب بأن يحتفظ لي بصحفي لأقرأها فور عودتي إلى البيت..

قال المفوض:

- أوه، من المستحيل ألا تكون على علم بأهم خبر في باريس، خبر اليوم!

أجبت عوضًا عن الكاهن:

- أظنُّ أنني أعرف هذا الخبر..

نظر إليَّ المفوض وقال بذهول:

- أنت؟ حقًّا؟ في هذه الحالة، قل لي ما رأيك؟

قلت له:

- يا إلهي! أنت فضولي!

قال متسائلًا:

- لماذا سيدي؟ لكل منا أراؤه السياسية الخاصة، وأنا أعتبرك إنسانًا قديرًا، لذا لا أصدّق أنه ليس لديك رأي خاص، فيما يخصني، أنا مع إعادة تشكيل الحَرَس الوطني، لقد كنت عريفًا في دفعتي، وصدقني، كانت تجربة جيدة للغاية..

قاطعته:

- لا أظنُّ أن هذا هو الخبر الهام الذي أشَرْت إليه في حديثك..

- وما هو إذًا؟ زعمتَ أنك على علم به..

- قصدتُ خبرًا آخر يشغل باريس كلها اليوم..

الغبي لم يفهمني، استيقظ فضوله:

- خبر آخر؟ بِحَق الشيطان. كيف تتناهى إلى علمك الأخبار؟ أرجوك سيدي العزيز. قل لي ما هو؟ أبتاه. هل تعرف عَمّا يتحدث؟ هل أنت على اطلاع أكثر مني؟ أتوسل إليك. ضعني في الصورة. خبّرني بما يتعلق الأمر. أتعلم؟ أنا أعشق جمع الأخبار. وأحكيها لسيدي الرئيس وهذا يسليه..

ظل يتلفت تارة إليَّ و تارة إلى الكاهن. بدا كميزان مترنح. بعد لحظات. أجبته وأنا أهز كتفيَ بلا اهتمام. ثم لم أقل شيئًا..

قال لي:

- ماذا إذًا! قل لي فِيمَ تفكر بالضبط؟

أجبت بهدوء:

- أفكر..في أنه لن يكون بوسعي أن أفكر بحلول المساء..

أجاب بلا مبالاة:

- آه. هذا هو الخبر إذن؟ هيا. أنت جد حزين. أتعلم؟ السيد كاستين كان يتكلم بلا توقف يوم إعدامه..

وأردف بعدما صمت قليلًا:

- لقد رافقت السيد باباڤوان أيضًا. كان يعتمر قبعته المصنوعة من الفراء وكان يستمتع بتدخين السيجار. وفيما يخص ضباط روشيل. فقد كانا يتحدثان معًا بشكل عادي.

توقف ليبتلع ريقه. وتابع:

- مجانين، طموحون للخلود! كان جليًا أنهم يحتقرون العالم بأسْرِه ويزدرون الحياة، أما أنت أيها الشاب، فإنني أجدك تكثر من التفكير كمُفكّر كبير..

أجبته:

- شاب؟! أنا الآن أكبركم سنًا، لأن كل ربع ساعة تمضي تضيف سنة إلى عمري وتجعلني أشيخ..

التفت نحوي، حَدّق إليّ لبضع دقائق باندهاشٍ جِدّ غبي، ثم طفق يضحك بسخرية:

- أنت كئيب! هيا، هل تمزح؟ أنت أكبر مني سنًّا؟ أنت في عمر جَدّي إذن!

قلت بأسًى:

- لا أرغب في الضحك..

فتح صندوق تبغه، وقال لي:

- خذ سيدي العزيز، لا تغضب أرجوك، جرعة من التبغ كفيلة بألا تحمل أية ضغينة نحوي..

- لا تَخْشَ شيئًا، لن يكون أمامي الكثير من الوقت لأحقد عليك..

في الوقت الذي مَدّ لي فيه صندوق تبغه الصغير، اصطدم هذا الأخير بعنف بالشباك الحديدي الذي كان يفصلنا. وسقط وانسكب محتواه على الأرض. صاح المفوض البليد:

- الشباك اللعين!

ثم استدار نحوي:

- أرأيت؟ يا لَحَظّي السيئ. خسرت تبغي كله!

أجبته مبتسمًا:

- أنا سأخسر أكثر منك. سأخسر شيئًا أهم بكثير..

حاول أن يجمع تبغه وهو يغمغم بغيظ:

- أكثر مني! من السهل عليك أن تقول هذا. لن يكون لديَّ تبغ حتى أصل إلى باريس..

أوه. المسكين. يا له من مُصَاب جَلَل!

وَجّه إليه الكاهن كلمات مواساة. لا أدري هل انشغلتُ بأفكاري الخاصة وحَلّقتُ بعيدًا عنهما؟ لكن تهيأ لي أن هذه الكلمات كانت كتتمة للعِظة التي ألقاها عليَّ الكاهن. شيئًا فشيئًا. انصرف اهتمام الكاهن والمفوض عني. وانهمكا في الحديث. تركتهما يغرقان في أحاديثهما الهامشية المفرغة من المعنى. وغرقتُ في التفكير..

عندما وصلنا إلى حاجز مدخل مدينة باريس، كنت ما أزال غارقا في التفكير في مصيري، رغم ذلك بدا لي أن صخب هذه المدينة كان أكثر من المعتاد..

توقفت العربة أمام الحاجز لبرهة، قام دركيّو المدينة بتفتيشها، لو كانت العربة تحمل خروفًا أو عجلًا يسوقونه إلى المجزرة لكان من اللازم أن يمنح سائق العربة حفنة من النقود الفضية لرجال الدرك، ولكن رأسًا بشريًا لا يُدْفَع من أجله النقود..

اجتزنا الحاجز بسلام..

مررنا بالشارع الرئيسي، ثم توغّلت العربة في الأزقة القديمة المتعرّجة لسان مارسو، والحي الفقير "لاسيتي"، التي تتقاطع وتتشعب كخَلية نمل نشيطة، تعالت جلجلة العربة وهي تعبر بسرعة رصيف هذه الأزقة القديمة لدرجة لم أعد أسمع معها أي ضجيج خارجي، وكلما ألقيتُ نظرة عبر النافذة الصغيرة الضيقة، كان يُخَيّل إليّ أن أمواج العابرين كانت تتوقف لتتبع العربة بأعينها الفضولية، وأن عصابات أطفال أشرار كانت تركض خلفها، وخُيّل إليّ أيضًا أنني كنت أرى من حين إلى آخر في مفترقات الطرق هنا وهناك رجلًا أو امرأة مسنّة ترتدي أسمالًا بالية، أو هما معًا، يحملان رزمة أوراق مطبوعة كان العابرون يتخاطفونها، ثم يفتحون أفواههم ويطلقون شهقة، ربما كانوا يوزعون إعلان إعدامي..

دقّت ساعة القصر معلنة حلول الساعة الثامنة والنصف صباحًا. في الوقت الذي وصلنا فيه إلى ساحة المحكمة الثورية. رؤية هذا السلم الكبير. هذه الكنيسة السوداء، و الشبابيك البشعة جَمّدت الدم في عروقي.. عندما توقفت العربة. خِلْتُ أن نبضات قلبي أيضًا على أهبة التوقف..

استجمعْتُ قوّتي. فُتح الباب بسرعة البرق. قفزت من العربة واندفعت بخُطى سريعة بين صفيّن من الجنود. كان هناك حشد من الناس المتعطشين لرؤية دمي يُسْفَك بانتظاري..

***

23

وأنا أسير في أروقة المحكمة، أحسستني شبه متحرر، كنت مرتاحًا، لكن شجاعتي خانتني ما إن فتحوا أمامي الأبواب المنخفضة، السلالم السرية، الممرات الداخلية، الأروقة الطويلة ذات الجدران الصَمّاء، التي لا يدخلها سوى أولئك الذين يُصْدِرون الأحكام أو السُّجناء..

كان المفوض لا يزال برفقتي، في حين أن الكاهن غادر ليعود بعد ساعتين، كانت لديه انشغالات أخرى. قادوني إلى مكتب مدير المحكمة الذي تركني المفوض بعُهدته، كان هذا تسليمًا أو فلنقل مُبَادَلة. رجاه المدير أن ينتظر قليلًا و هو يعلمه بأن سيكون لديه "صَيْد" يسلّمه إياه كي يصحبه على الفور إلى بيسيتر في طريق العودة. إنه محكومٌ عليه بالإعدام اليوم بلا ريب، ذاك الذي يتحتم عليه أن ينام هذه الليلة فوق كومة قشي التي خلّفتُها ورائي..

قال المفوض للمدير:

- جيد. سأنتظر قليلًا إذن. سنُحَرِر المحضرين في نفس الوقت. هكذا أفضل..

في الانتظار. وضعوني داخل مكتب صغير مُلْحَق بمكتب المدير. تركوني هناك وحيدًا بعدما قيّدوني جيدًا.

لا أعلم في ما كنت أفكر و لا كم مضى من الوقت وأنا هناك. حينما أيقظني من شرودي صوتٌ عالٍ وقاس لقهقهات مستفزة اقتحمت أذني. رفعت عينيّ وأنا أرتعش واكتشفت أنني لم أكن وحيدًا هناك. كان ثمة رجل معي. رجل قَدّرت أنه يبلغ من العمر حوالي الخامسة والخمسين. معتدل الطول. وجهه مجعّد. رمادي. عريض. جسده ممتلئ. في عينيه الرماديتين نظرة ساخرة وتعلو وجهه المتسخ ابتسامة مريرة. يبدو أن الباب انفتح و لفظه ثم أغلِق من جديد دون أن أعي ذلك. فقط لو كانت ميتتي هكذا. ميتة لا أعيها..

نظر أحدُنا إلى الاخر لثوانٍ معدودات. كان مستمرًّا في ضحكته الشبيهة بالحشرجة. فيما بقيت نصف مذهول. نصف خائف. سألتُه أخيرًا:

- من تكون؟

أجابني:

- يا له من سؤال غريب! أنا خارج عن القانون مثلك تمامًا..

سألته مُجدَّدًا:

- خارج عن القانون؟ ماذا اقترفتَ بالتحديد؟

يبدو أن هذا السؤال ضاعف دهشته وصاح وسط نوبة ضحكه:

- هذا يعني أن الجَلاد سيلهو برأسي قبل أن يقذفه في سلة الرؤوس بعد ستة أسابيع بالضبط، مثلما سيلهو برأسك المقطوع بعد ست ساعات. هِهِ، هاهاها. يبدو أنك فهمت الآن..

في الحقيقة، شحب وجهي ووقف شعر رأسي، كان هذا السَّجينُ المحكومَ عليه اليوم الذي تنتظره بيسيتر، إنه خليفتي.

تابع:

- ماذا تريد؟ أن أحكي لك قصتي؟ أنا ابن مجرم سبق أن "ارتدى ربطة العنق وعقَد قرانه على الأرملة" وأنا طفل، الحمد لله أنه تم إعدامه في الزمن الذي كانت لا تسود فيه سوى المشنقة، ولم يقطعوا رأسه، عندما بلغت السادسة كنت قد فقدت والدي ووالدتي، في الصيف، كنت أكنس الطرقات لعل أحدهم يرمي إليّ فِلسًا من نافذة إحدى العربات المارة، أما في الشتاء، فقد كنت أسير بقدمين حافيتين في الوحل وأنا أنفخ في يديّ وأصابعي المحمرّة، كان بوسع الناس رؤية فخذيّ العاريتين عبر ثقوب سروالي البالي، في عمر التاسعة، بدأت "أستعين

بأصابعي ". من حين إلى آخر كنت أفرغ جيبًا أو أسرق معطفًا. في العاشرة أصبحت نشالًا موهوبًا. بعدها. كَوَنْتُ بعض المعارف. وفي السابعة عشرة صرت لصًا محترفًا. كنت أقتحم المحلات التجارية وأحطم الأقفال وأزوّر المفاتيح. ثم أُلقي القبض عليَّ. كنت قد بلغت سن الرشد. و حكموا علي بالأشغال الشاقة. وأرسلوني للعمل في قعر السفن. كان ذلك شاقا بالفعل. كنت أنام على لوح خشبي. وآكل الخبز الأسود العفن. وأشرب الماء وحسب. كنت أجر سلسلة رهيبة. وأتلقى ضربات الهراوات وضربات الشمس طوال الوقت. إضافة إلى كل هذا. كانوا يحلقون رأسي كما يَجُزّون خروفًا. أنا الذي كان لديَّ شعر كستنائي جميل أفتخر به! لا يهم. أمضيت فترة عقوبتي. خمس عشرة سنة تلاشت من عمري. حين غادرت السجن كنت قد بلغت الثانية والثلاثين. ذات صباح جميل وأنا أهُم بالمغادرة منحوني بطاقة سفر وستة وستين فرنكًا كانت هي كل "ثروتي" التي راكمتُها في الخمس عشرة سنة التي أهدرتها في الأشغال الشاقة. وأنا أعمل ست عشرة ساعة في اليوم. طيلة أيام الشهر وطوال شهور السنة. كل هذا كان غير مهم في نظري. كنت أرغب في أن أصير رجلًا صالحًا. بالاستعانة بالستة والستين فرنكًا التي جنيتُها. و كان تحت أسمالي نيات طيبة تضاهي النيات الخيِّرة التي توجد تحت جُبّة الكاهن. لكن الشياطين كتبوا على جواز سفري المُصْفَرّ:

"محكوم عليه بالأشغال الشاقة أخلِيَ سبيله". كان لزامًا عليَّ أن أريه أينما حللت وارتحلت. وأن أذهب به أسبوعيًا إلى عمدة

القرية التي أجْبِرت على الإقامة بها، كانت شهادة مشرّفة أحملها معي، محكوم عليه بالأشغال الشاقة أطلِق سراحه. كنت أثير الرعب بين الناس وكان الأطفال يهربون حين يرونني، وكانت الأبواب تُغلق في وجهي، لا أحد كان يوافق على أن يمنحني عملًا، كنت مُرغمًا على أن أصرف من فرنكاتي الستة والستين لآكل إلى أن أتيتُ عليها، وبعدها، كان يلزمني أن أعيش، لذا، عرضت ساعديّ القويين على أرباب العمل، أوصدت كل الأبواب في وجهي، حتى إنني عرضت أن أعمل يومًا كاملًا مقابل خمسة عشر فِلسًا، عشرة، خمسة، أي شيء..ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ ذات يوم بلغ مني الجوع مبلغه فحطّمت نافذة مخبزة و سرقت رغيفا، بلّغ عني الخبّاز وأُلقيَ القبض عليّ قبل أن ألتهم الرغيف، وحكموا عليّ بالأشغال الشاقة المؤبدة، بل إنهم وَسَموا ثلاثة أحرف بالنار على كتفي، إنهم يدعون هذا الوَسْم المُخزي بعلامة "ذي سوابق"، سأريك إياه إذا شئت، ثم أعادوني إلى الأشغال الشاقة بتولون، هذه المرة وأنا أعتمر القبعة الخضراء التي تُمَيّز المحكوم عليهم بالمؤبد، كان عليّ أن أهرب، ولأنجح في ذلك، كان يجب أن أثقب ثلاثة جدران، وأقطع سلسلتين، كان بحوزتي مسمار، فررت، فأطلِق مدفع الإنذار لأننا نحن المحكوم عليهم بالأشغال نشبه كاردينالات روما، وإذا ما خرجنا، يطلقون المدافع من أجلنا.

هذه المرة لم يكن بحوزتي جوازي الأصفر ولا فرنك واحد، التقيتُ برِفاق كانت قد انتهت مدة عُقوبتهم أو هربوا بدورهم بعدما كسروا سلاسلهم، اقترح عليَّ زعيمهم أن أنضم إليهم، أصبحت مثلهم، قاطع طرق وقاتلًا، قبلت عرضه، وهكذا صرت أقتل لأحيا، مرة أقتل تاجرًا، ومرة مالك أرض، ومرات أخرى كنت أبيد راكبي عربات بأكملها، كنا نترك الجياد أو العربات وندفن الضحية تحت شجرة، بعدما نحرص جيدًا على ألا تبرز قدماها من تحت التراب، وبعدها كنا نرقص فوق الحفرة لنُسَوّيها كي لا يظهر للمارة أن تلك الأرض قد نُبِشَت حديثًا، شِخْتُ وأنا أعيش في الطرقات، أترصّد العابرين كل ليلة، إلى أن أنام وأنا أفترش العشب وألتحف النجوم، كنت أنتقل من غابة إلى غابة، إلا أنني كنت على الأقل رجلًا حُرًّا، لكن لكل شيء نهاية، وفي الحقيقة أنا أفضّل نهايتي هذه على نهاية أخرى..

ذات ليلة رائعة، داهَمَنا الدرك، رفاقي تمكنوا من الفرار، لكن أنا، العجوز الذي شاخ على الطرقات، علقت بين مخالب هذه "القطط" ذات القبعات والأشرطة الذهبية، جلبوني إلى هنا، كان قد سبق لي وارتقيتُ كل درجات سُلّم الإجرام، كنت قد ارتكبت كل أنواع الجرائم

ولم يعد أمامي سوى أن ألتقي بالجلاد، كانت أطوار محاكمتي قصيرة، يا إلهي! لقد بدأت أهرم ولم أعد صالحًا لأي شيء عدا الموت، والدي "تزوج الأرملة"، أما أنا، فمن سوء حظي "سأصبح

راهبًا في دير الندم" أي إنني سأعدَم بالمقصلة، وهذه قصتي أيها الرفيق..

بقيت أنصت إليه باهتمام، وجدتُه غبيًا، اجتاحته نوبة ضحك أعلى من سابقتها، وأراد أن يمسكني من يدي، تراجعت إلى الخلف بارتياع، قال لي:

- يا صديقي، من الواضح أنه تعوزك الشجاعة، لا تكن رعديدًا أمام الموت، ستُمضي لحظة رهيبة في ساحة غريف ولكنها ستمضي بسرعة، لَكَمْ أرغب في أن أكون هناك لأقَدّمَ لك مثالًا عن السقوط الحر للرأس عقب انفصاله عن الجسد، يا إلهي! لا أريد أن أتقدم بطلب نقض، إذا أرادوا أن يقطفوا رأسي اليوم معك، سيكفينا نفس الكاهن، لا يهمني أي شيء على الإطلاق، أرأيت أنني لست رجلًا سيئًا؟ هيه، قل لي، أتريد أن أكون صديقك؟

خطا خطوة أخرى باتجاهي، فأجبته وأنا أحاول أن أدفعه بعيدًا عني:

- سيدي، أشكرك!

أجابني بضحكات مجلجلة أخرى:

- آه، آه، يا سيدي، أنت ماركيز، أجل، أنت ماركيز!

قاطعته:

- يا صديقي، يجب أن أصَفّيَ ذهني، دعني وشأني..

صرامة كلماتي جعلته يستغرق في التفكير على حين غرة، هز رأسه الشبه أصلع الذي غزاه الشيب، بعدها شرع ينشب أظفاره في صدره العاري الذي كان يظهر من تحت قميصه المفتوح، ثم همس لي:

- أتفهمك، في الواقع الكاهن سيعود لرؤيتك بعد قليل..

بعد بضع دقائق ساد فيها الصمت، أردف بنبرة شبه خجولة:

- هاك، أنت ماركيز، وهذا جيد، تملك سترة جميلة لن تعود عليك بالنفع بعد اليوم، سيأخذها الحارس بلا شك، لذا من الأفضل أن تمنحها لي، سأبيعها مقابل التبغ..

خلعت سترتي الفاخرة وأعطيته إياها، شرع في التصفيق بفرح طفولي، وبعدما لاحظ أنني أرتعد بسبب قميصي الخفيف، قال:

- تشعر بالبرد سيدي، سأعطيك بذلتي، ارتدِها لتَقيك المطر كي لا تبتل، ثم إنه ينبغي أن يكون مظهرك لائقًا في العربة التي ستقلك إلى ساحة غريف .

نزع بذلته المنسوجة من القطن الرمادي، وألبسني إياها، تركته يفعل ما يشاء، وبعد ذلك استندتُ على الجدار، لا أستطيع وصف الانطباع الذي خلّفه لديَّ هذا الرجل، بدأ

يتفحص السترة التي أعطيته إياها وهو يطلق صرخات بهجة في كل لحظة ويقول:

- الجيوب جديدة كليًّا، الياقة ليست مستعملة، سيمنحونني مقابلها خمسة عشر فرنكًا على الأقل، يا لسعادتي! سيكون لديَّ تبغ يكفيني طيلة الستة أسابيع التي تسبق إعدامي.

فُتح الباب مُجدَّدًا، كانوا قد قدموا من أجلنا نحن الاثنين، أنا ليسوقوني إلى الغرفة التي ينتظر بداخلها المحكومُ عليهم بالإعدام حلول ساعة إعدامهم، وهو ليأخذوه إلى بيسيتر، توسّط الحراس الذين قدموا من أجله وهو يضحك ويقول:

- آه، لا تخلطوا بيننا! لقد تبادلنا سترتينا لكن لا تأخذوني عوضًا عنه، بِحَقّ الشيطان، هذا لن يكون شيئًا جيدًا بالنسبة إليّ الآن لأنني أتوفر على تبغ كافٍ لستة أسابيع..

***

24

ذاك المجرم العجوز، انتزع سترتي مني، ذلك لأنني لم أعطه إياها عن طيب خاطر، ومن ثَمّ ترك لي هذه الخرقة البالية الممزقة، سترته الوضيعة، كيف سيكون مظهري الآن؟

لم أتركه يأخذ سترتي الفاخرة عن لا مبالاة أو إحسان، لا، ولكن لأنه أقوى مني بكثير، ولو أنني رفضت، كان سيوسعني ضربا بقبضتيه الضخمتين.

آه، أجل، الإحسان! هذا ما ينقصني الآن. كنت ممتلئًا بأحاسيس شريرة، كنت أرغب حقًّا في خنقه بيديّ، السارق العجوز، كنت أريد أن أسحقه تحت قدميّ!

أحسستُ بقلبي يطفح بالحقد والمرارة، أظنُّ أن النور الذي يضيء سويداء قلبي قد انطفأ كليًا. الموت يجعلنا أشرارًا..

25

أخذوني إلى زنزانة ليس فيها سوى أربعة جدران، ونافذة عليها الكثير من القضبان، وباب بِعِدّة أقفال طبعًا.

طلبت طاولة، كرسيًا، ولوازم الكتابة، أحضروا لي كل ما طلبت، ثم طلبت سريرًا، نظر إليَّ الحارس باندهاش ولسان حاله يقول:

- ما نفع السرير لشخص سيُعْدَمُ بعد ساعات؟

ولكنهم جلبوا لي فراشًا بسيطًا، وضعوه في زاوية الزنزانة، وفي نفس الوقت جاء دركي ليشاركني ما يسمونه "غرفتي". ترى هل يخشون أن أشنق نفسي مستعينًا بأجزاء من الفراش؟

***

26

إنها العاشرة صباحًا..

آه، طفلتي الصغيرة المسكينة! ست ساعات فقط وأصبح ميتًا، سأصير شيئًا قذرًا، مهملًا على الطاولة الباردة لصالة العرض (ساحة الإعدام): رأس سيلقونه من جهة، جذع سيجففونه من جهة أخرى، وما تبقى مني سيلقونه في تابوت، والكل سيُبعث إلى مقبرة كلامار.

هذا هو ما سيفعلونه بأبيك، هؤلاء الرجال الذين لا أحد فيهم يكرهني، بالعكس، كلهم يتحسرون على شبابي، وكلهم يستطيعون إنقاذي، سيقتلونني، هل تفهمين هذا يا ماري؟ سيقتلونني بِدَمٍ بارد في احتفال، سيقتلونني من أجل القتل! آه، يا إلهي! صغيرتي المسكينة، أبوك الذي أحبك كثيرًا، أبوك الذي كان يُقَبّل عنقك الصغير الأبيض والمُعَطّر، والذي كان يُمَرّر يده من دون انقطاع على خصلات شعرك الحريري، أبوك الذي كان يمسك وجهك الجميل المستدير بِكَفّيه، ويؤرجحك على ركبتيه،

وفي المساء، يعلّمك كيف تصلّين لله وترفعين كفّيك الصغيرتين بالدعاء..

من الذي سيفعل لك كل هذا الآن؟ من سيحبك؟ كل أقرانك سيكون لديهم آباء، إلا أنت. كيف ستتخلصين يا طفلتي مما عوّدتك عليه في رأس السنة من هدايا: الألعاب الجميلة، الحلوى والقُبل؟ كيف ستُحْرَمين أيتها اليتيمة التعيسة من الطعام و الشراب؟

آه، لو كان المحلّفون قد رأوا على الأقل صغيرتي الجميلة ماري، كانوا سيفهمون أنه لا يجب قتل أبي طفلةٍ تبلغ ثلاثة أعوام.

وعندما ستكبر هذه الطفلة، إذا أسعفها الحظ في ذلك، ماذا سيكون مصيرها؟

والدها سيصبح رمزًا من رموز الذاكرة الجماعية لشعب باريس، ستخجل مني ومن اسمي، سيحتقرونها، سينبذونها، سيستصغرونها بسببي أنا، أنا الذي أحبها من أعماق قلبي.

آه، صغيرتي ماري المحبوبة! هل فعلا ستشعرين بالخزي والعار بسببي؟ يا لبؤسي! أية جريمة اقترفت، وأية جريمة سأجعل المجتمع يقترفها! أوه، هل حقًّا سأموت قبل نهاية اليوم؟ هل حقًّا يتعلق الأمر بي أنا؟

ضجيج هذه الصرخات العالية التي تأتي من الخارج، أمواج الشعب المنتشية التي تتسابق على الطرقات، هؤلاء الدركيون الذين يستعدون في ثكناتهم، هذا الكاهن بثوبه الأدكن، ذاك الرجل الآخر ذو اليدين الداميتين، هل كل هذا من أجلي أنا؟ أنا الذي سأموت، أنا، نفس الشخص الموجود هنا، الذي يحيا، الذي يفكر، الذي يحس، الذي يتنفس، أنا، في النهاية، هذه الأنا التي ألمسها والتي أحسّها..

***

27

فقط لو كنت أعرف كيف نموت هناك، لكن، الشيء الفظيع هو أنني لا أعرف ذلك..

كلمة مقصلة في حد ذاتها شنيعة، ولا أفهم كيف استطعت إلى الآن أن أكتبها وأنطق بها..

هذه الكلمة المكوَّنة من خمسة أحرف، هيئتها ومظهرها كافيان لإيقاظ فكرة مريعة، والسيد " غيلوتين " طبيب النحس الذي اخترع هذه الوسيلة البشعة واشْتُق منه اسمها، كان بالفعل اسما على مسمى..

الصورة التي ترتبط لدي بهذه الكلمة الشنيعة، صورة ضبابية غير محددة، والأكثر من ذلك مُرَوّعة، وكل حرف من حروف اسمها يتماهى مع قطعة منها، ظللت أجمع وأهدّم أجزاء هذه الآلة الوحشية في ذهني بلا هوادة..

لا أجرؤ على طرح أي سؤال عنها، لكنني أجد أن عدم معرفة ماهيتها بالضبط، ولا كيف أتعامل معها لأمر رهيب، يبدو أنهم يُثَبّتونك تحتها ويجعلونك تنام على بطنك، فوق منصة على ما أظن.. آه، سيَشيب شعري قبل أن تهوي المقصلة على رأسي وتجعله يتدحرج..

***

28

أتذكر الآن، أنه سبق أن رأيتها ذات مرة..

في يوم من الأيام، الساعة الحادية عشرة صباحًا تقريبًا، كنت مارًا بساحة غريف ممتطيًا عربة، وفجأة، توقفت العربة..

كان هناك حشد في الساحة، أخرجت رأسي من البوابة، كانت هناك أمواج بشرية متلاطمة على الرصيف مكونة من نساء ورجال، في حين كان الأطفال يعتلون أعمدة الساحة، ورأيت منصة من الخشب الأحمر ينصبونها..

كانوا قد قرروا أن يعدموا أحد السُّجناء في ذلك اليوم. أشحتُ بوجهي قبل أن أرى ذلك المشهد الذي تقشعر له الأبدان، بالقرب مني، كانت تقف امرأة تقول لطفلها:

- هاك، انظر، الشفرة الحديدية لا تسقط كما ينبغي، لذا سيقومون حتمًا بتزييتها..

من الوارد أنهم هناك الآن، ينصبونها من أجلي، لقد دقّت الساعة الحادية عشرة قبل لحظات، إنهم يقومون بتزييت شفرة المقصلة من أجلي بلا شك..

آه، من سوء حظّي أنني لن أتمكن من الإشاحة عنها برأسي هذه المرة..

***

29

آه، العفو، العفو..

من الممكن أنهم سيصدرون عفوًا عني، إن الملك سيكون رحيمًا بي، فليذهب أحدهم ويبحث عن محاميّ الخاص، أريد أن يحضر المحامي الآن، أفضّل الأشغال الشاقة، خمس سنوات من الأشغال، أو عشرون.. لا يهم، ولو حكموا عليّ بالأشغال الشاقة المؤبدة مع وسم النار الخاص بأصحاب السوابق، أريد فقط أن يعفوا عن حياتي، لأبقى على قيد الحياة، ولو قُدّرَ لي أن أجر السلاسل إلى أجل غير مسمى..

إن المحكوم عليه بالأشغال الشاقة بوسعه على الأقل أن يتنفس، أن يمشي ذهابًا و إيابًا، وأن يرى الشمس..

***

30

عاد الكاهن..

كان يبدو لطيفًا بشعره الأشْيَب، وبوجهه المشرق ذي التقاسيم الرقيقة. إنه في الواقع رجل خَيّر ومحسن. لقد لمحته هذا الصباح وهو يُفْرغ كيس نقوده في راحات أيدي السجناء. لكن، لمَ لا توجد نبرات رقّة وتعاطُف في صوته؟ ولِمَ لمْ يقل لي حتى الآن كلمات تتسرب إلى عقلي وتلامس قلبي؟

هذا الصباح، كنت شاردًا، تائهًا بين الأفكار، ربما لهذا سمعتُ بصعوبةٍ كلماته التي بَدَتْ لي غير مُجْدِية ألبتة. وظللت غير مكترث، وجدت أن كلماته سقطت عليَّ مثلما تسقط الأمطار الباردة على الزجاج المُضَبّب..

ومع هذا، ارتَحْتُ لرؤيته بعد عودته وجلوسه بالقرب مني، لأنه من بين كل الرجال الموجودين هنا، كان بالنسبة إليَّ الرجل الوحيد الذي لا يزال على قيد الإنسانية..

جلس على الكرسي، في حين جلست أنا على حافة الفراش، ناداني ب:

- بُنَيّ..

لامست هذه الكلمة قلبي..

تابع:

- يا بني، هل تؤمن بالرب؟

أجبته:

- أجل، أبتِ..

أضاف:

- هل تؤمن بالكنيسة الكاثوليكية المقدسة الرسولية والرومانية؟

قلت له:

- أومن بها عن طيب خاطر..

أردف:

- بني، تبدو لي مُتَشَكّكًا..

بعدها، شرع في الحديث، تحدث مُطوَّلًا، بإسهاب، وعندما تخيلتُ أنه قد انتهى، قام ونظر إليَّ للمرة الأولى مذ بدأ خطبته، وسألني:

- إذًا؟

تحجّجت بأنني استمعتُ إليه منذ البدء باهتمام وبإخلاص تام، ثم قمت بدوري قائلًا:

- سيدي، أرجوك دعني وحدي، أتوسل إليك..

سألني:

- متى أعود؟

أجبت:

- سأعْلِمُكَ بذلك..

غادر دون أن يقول شيئًا، لكنه كان يهز رأسه وكأنه يردد في نفسه:

- كافر!

لا، رغم أنني سقطت في الحضيض، لم أصبح كافرًا، والرب شاهد على أنني أومن به، لكن ماذا قال لي هذا العجوز؟ لم يكن يحس فعليًّا بأي شيء مما قاله، لم يقل كلمات مواسية ولا مُبْكِية ولا كلمات خرجت من صميم قلبه لتُلامس روحي وشغاف قلبي، بالعكس، كان كلامه مُبهَمًا، ملتبسًا، موحّدًا، يطبّقه على كل الحالات، ويردده على مسامع جميع السُّجناء، كان كلامًا مُنَمّقًا في المواضع التي كان يلزمه فيها أن يكون عميقًا، سطحيًّا وبسيطًا، نوع من العِظة العاطفية أو مرثية لاهوتية، يُطَعّمُه هنا

وهناك باقتباس باللغة اللاتينية، وهو يذكر القديس " أوغستين " والقديس " غريغور "، ما شأني أنا؟ ثم إنه بدا لي كأنه يستظهر درسًا سبق أن استظهره عن ظهر قلب عشرين ألف مرة، أو يتطرق إلى ثيمة نُقِشَت في ذاكرته من فرط ما رددها، كل هذا ولا شيء في عينيه، أو في نبرة صوته أو في حركة يديه يشي بتعاطفه معي..

وكيف يمكن أن يكون الأمر مختلفًا؟ بما أن هذا الكاهن مهمته هي أن يكون "المستشار الروحاني للسجن"، ليُعَزِّي ويعظ السجناء والمحكوم عليهم بالإعدام، إنه يعيش من عمله هذا، إنه يسمع اعترافات المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة والمرضى السائرين نحو الموت، لقد شاخ وهو يقود كل هؤلاء الرجال صوب محطتهم الأخيرة، لهذا اعتاد منذ زمن على رؤية ما يقشعر الناس لرؤيته، ولم يعد شعره الأبيض يقف لدى رؤيته لفظائع السجن والمقصلة، لأنها صارت أشياء يومية ومألوفة بالنسبة إليه، كونه يراها كل يوم..

لقد سَئِمَ هذه الأمور، من الممكن أنه يملك دفترًا يخصص قِسمًا من صفحاته للمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، وقسمًا آخر للمحكوم عليهم بالإعدام، يُعْلِمونه مساء بأنه سيكون لديه محكوم عليه، عليه أن يواسيه ويعظه في الصباح الموالي، يستفسرهم عن هويته، وعما إذا كان محكومًا عليه بالأشغال أو بالإعدام، وبعدها، يقرأ الصفحة المخصصة لهذا المحكوم في

دفتره، ثم يأتي في الصباح ليقوم بعمله المعتاد، و هكذا، في نظره، المحكوم عليهم بالأشغال في تولون والمحكوم عليهم بالهلاك في ساحة غريف سواسية، لا يُفرّق بينهم..

أوه، عوض أن يجلبوا لي هذا الكاهن متبلّد الأحاسيس، فليذهبوا إذًا ويبحثوا لي عن راهبٍ شاب، عن قس طاعن في السن، أي رجل كنيسة وضعته المصادفة في طريقهم في أول أبرشية مروا بمحاذاتها، ليأخذوه جانبا، على حين غرة، وهو واقف يقرأ كتابه دون أن يتوقع قدوم أحد، و يقولون له:

- هنالك رجل سيموت، ويجب أن تكون أنت من يواسيه. يجب أن تكون حاضرًا هناك عندما سيُحْكِمون وثاق يديه وعندما سيحلقون شعره، أن تصعد على متن عربته مع صليبك، ألا تتركه ينظر كثيرًا إلى الجلاد، وأن ترافقه من باحة السجن حتى ساحة غريف، أن تعبر معه بين الحشد الفظيع المليء بمَصّاصي الدماء، أن تُقبّل جبينه وهو تحت المقصلة، وأن تظل هناك إلى أن ينفصل رأسه عن جسده..

إذًا، فليجلبوه لي، وهو يرتعش وتسري الرجفة من رأسه حتى أخمصي قدميه، ليلقوني بين ذراعيه، أو تحت رجليه، وسيبكي، وسنبكي معًا، ستكون عظته بليغة، وسأجدني مُواسًى، سيطفئ النار المستعرة في قلبي، وسيأخذ روحي، وأنا سأومن بإلهه..

لكن، هذا الكاهن العجوز، من سيكون بالنسبة إليَّ، وأنا، من سأكون بالنسبة إليه؟ شخص من الفئة التعيسة، شبح يشبه الأشباح التي سبق أن رأى الكثير منها، رقم ينضاف إلى رقم الإعدامات، ربما أخطأت لأنني رفضته هكذا، إنه هو الطيب في حين أنني الشرير، وا حسرتاه! الذنب ليس ذنبي، إن أنفاسي الملوّثَة بالدم هي التي تُفسد وتُذبل كل شيء..

لقد جلبوا لي الأكل، أظنُّوا أنني بحاجة إليه، مائدة أنيقة، عليها دجاجة على ما أظنُّ وشيء آخر، حاولت أن آكل ولكن عندما تناولت اللقمة الأولى سقطت من فمي من فرط ما بدا لي طعمها مُرًّا ومسمومًا..

***

31

دخل شخص يعتمر قبعة، لم يكد ينظر إليّ، وفتح شريط قياس وشرع يقيس من الأسفل إلى الأعلى الجدران، وهو يتحدث بنبرة جد عالية ويقول بين الفينة والأخرى:

- هذا هو، ليس هذا!

سألت الدركي عَمّن يكون هذا الشخص، أجابني بأنه أحد مساعدي المهندس الذي يعمل بالسجن.

استيقظ فضول مساعد المهندس نحوي، تبادل بضع كلمات مع الحراس الذين كانوا يرافقونه، وبعدها ثَبّت عينيه لحظة عليّ، وهزّ رأسه بطريقة لا مبالية، وعاد ليُكلّم نفسه بصوتٍ عالٍ، وليأخذ القياسات..

عندما أنهى عمله، اقترب مني وقال لي بصوته الرقيع:

- صديقي العزيز، بعد ستة أشهر سيصبح هذا السجن أفضل بكثير..

كان يبدو من نظراته أنه يريد أن يضيف:

- لكنك لن تتمتع به، وإنه لأمر مؤسف!

كان يضحك تقريبًا، لكن الدركي، ذاك المحارب القديم قال له:

- سيدي، غير مسموح بالتكلم بصوت عال في غرفة ميّت..

غادر مساعد المهندس، أما أنا، فقد ظللتُ هناك، كأحد الجدران التي كان يقيسها..

***

32

بعدها، تعرضت لموقف سخيف..

أتى أحدهم ليستبدل الدركي العجوز الطيب، بعدما انتهت مناوبته. ذاك الدركي الذي لم أكلّف نفسي عناء مصافحته. أنا، الأناني، ناكر الجميل.

أتى دركي آخر ليأخذ مكانه. كان جبينه عريضًا وعيناه كبيرتين كعينيْ ثور، ووجهه غبي. لم ألْقِ بالًا إليه. بقيت مُوليًا ظهري إلى الباب، وأنا جالس أمام الطاولة، أحاول أن أخفّف حرارة جبيني بيدي الباردة. كان رأسي يضج بالأفكار..

أيقظتني ضربة خفيفة على كتفي وجعلتني أدير رأسي. كان ذاك الدركي الجديد الذي كنت وحيدًا معه. ها هي تقريبًا الطريقة التي وَجّه بها كلامه إليّ:

- أيها المجرم، ألديك قلب طيب؟

أجبته:

- لا..

يبدو أن إجابتي المباغتة فاجأته، ومع ذلك تابع بتردد:

- لا أظنُّ أننا نصير أشرارا فقط لأننا نستمتع بالشر..

عَلّقتُ:

- لمَ لا؟ إذا لم يكن لديك ما تقوله سوى هذا، فلتدعني وشأني، ما قصدك بهذه الأسئلة؟

أجابني:

- اعذرني مُجْرِمِي، أريد أن أقول كلمتين فقط، ها هما: إذا كان بمستطاعك أن تُسعِد رجلًا مسكينًا، لن يكلفك إسعادُه شيئًا، ألن تقوم بذلك؟

هززت كتفيّ ورددت:

- هل أتيت من مارستان " شارونتان "؟ اخترتَ وعاء فارغًا لتغترف منه السعادة، أنا أصنع سعادة أحدهم!؟

خفض نبرة صوته، وعَلت وجهه مسحة غموض لا تليق بملامحه الغبية، وقال:

- نعم أيها المجرم، نعم، السعادة. نعم، الثروة، كل هذا بوسعك أن تقدمه لي، أنظر، أنا دركي فقير، الخدمة صعبة، والمرتّب هزيل، حصاني يتسبب في إفلاسي، أنا ألجأ إلى القمار لأعدل الكفّة. من الواجب أن يكون لديك مدخول إضافي. إلى

الآن لم ينقصني لأربح رهاناتي سوى الأرقام الصحيحة. أبحث عنها دائمًا، لكنني أمر بمحاذاتها وحسب. أراهن على الرقم 76 فيسحبون الرقم 77 . مهما أفعل ومهما أحاول لا يُجدي ذلك نفعًا.. أرجو أن تتحلى بالصبر من فضلك، أنا أشارف على إنهاء كلامي، إذن، ها هي ذي فرصة جيدة بالنسبة إليَّ، الظاهر أيها المجرم أنك ستعبُر اليوم، وإنه أمر مؤكد أن الأموات الذين نقتلهم بهذه الطريقة يرون الأرقام الرابحة التي يسحبونها في اليانصيب مسبقًا، عِدني بأن شبحك سيزورني مساء الغد. ماذا ستخسر؟ أعطني ثلاثة أرقام، ثلاثة أرقام صحيحة. أنا لا أخاف الموتى العائدين، اطمئن، ها هو ذا عنواني: ثكنة "بوبين كورت"، الطابق الأول، رقم 26 في نهاية الممر. ستتعرف إليَّ، أليس كذلك؟ فلتأتِ هذا المساء إذا شئت، إذا كان هذا يناسبك أكثر..

كنت سأمتنع عن إجابة هذا الغبي، لولا أن أملًا مجنونًا عَبَرَ ذهني، في الحالة اليائسة التي كنت فيها، نظن أحيانًا أنه من الممكن أن نكسر قيدًا بالاستعانة بخيط، قلت له وأنا أحاول أن أمَثّل عليه بأفضل أداء ممكن بالنسبة لرجل يسير نحو حتفه بخطى حثيثة:

- اسمع، أستطيع في الحقيقة أن أجعلك أغنى من الملك، أن أجعلك تربح الملايين، بشرط واحد..

اتسعت عيناه الغبيتان وقال:

- ما هو؟ ما هو؟ لك كل ما تريد مُجْرِمِي..

أجبته:

- عوضًا عن ثلاثة أرقام.. أعدُك بأربعة، شرط أن نتبادل ملابسنا..

صاح وهو يفتح أزرار بذلته:

- هذا فقط!

نهضت من الكرسي، كنت أراقبُ كل حركاته، كان قلبي يخفق، كنت أرى الأبواب تُفْتَح

مسبقًا أمام بذلة الدركي، وساحة غريف، الشارع، والمحكمة الثورية قد صارت خلفي.. ولكنه استدار بتردد، وقال:

- أوه، هذا ليس من أجل أن تهرب من هنا؟ أليس كذلك؟

فهمت أن خطتي قد فشلت، وضاع كل شيء، ولكنني قمت بمحاولة أخيرة، عقيمة، ومفرغة من المعنى، قلت له:

- فلنقل إنني سأفعل، لكنني أضمن لك أن تصير ثريًا..

قاطعني:

- آه، إذن لا! وماذا عن أرقامي؟ لتكون أرقامي رابحة يلزمك أن تكون ميّتًا..

عدتُ إلى مكاني وأنا فاقد لقدرتي على الكلام، ولأي أمل كان لديّ..

***

33

أغمضت عينيّ، ووضعت يدي على جبيني، وحاولت أن أنسى الحاضر باللجوء إلى الماضي، وأنا أحلم. عادت إليّ ذكريات طفولتي وشبابي، ذكرى ناعمة، هادئة، ضاحكة، كجُزُرٍ زهرية نبتت فوق الهاوية السحيقة للأفكار السوداء، المتداخلة التي كانت تموج في رأسي.

رأيت نفسي طفلًا، تلميذًا غرًّا مبتسمًا وأنا ألعب وأركض رفقة إخواني فوق الممشى الطويل المعشوشب لتلك الحديقة الوحشية التي أمضيت بين جنباتها سنواتي الأولى، كانت مقرًّا قديما لأخوية دينية مشرفة على القبة القاتمة لكنيسة "ڤال دو غراس".

ثم رأيتُني بعد أربع سنوات، لا أزال هناك، وأنا ما زلت طفلًا، حالمًا وشغوفًا، لاحظ أنه في الحديقة المنعزلة تجلس صبية جميلة، صبية إسبانية شعرها حالك طويل، عيناها كبيرتان، بشرتها سمراء، شفتاها كرزيتان وخدّاها متوردان، كانت أندلسية تبلغ من العمر أربع عشرة سنة، تدعى "بيبا".

سمحت لنا والدتانا بأن نركض ونلعب معًا، فاعتدنا التنزه.. طلبت منا والدتانا أن نلعب، لكننا كنا نتحدث معًا أكثر مما نلهو، كنا طفلين في عمر واحد، صديقين من جنسين مختلفين..

بعد مرور عام على تعارفنا، كنا لا نزال نركض ونتشاجر ونتخاطف أفضل تفاحة في الحديقة، ضربت "بيبيتا" دفاعًا عن عش طير، بكت طويلًا، فقلت لها:

- هذا ما تستحقينه!

ذهبنا لنشتكي إلى والدتينا، فوبّختانا وألقتا اللوم علينا نحن الاثنين، أراها الآن تستند على كتفي وأنا جد فخور ومتأثر، كنا نسير ببطء ونحن نتحدث بصوت خفيض، أسقَطَتْ منديلها عمدًا، انحنيتُ لألتقطه، ارتعشت يدانا حين تلامستا، حدثتني عن صغار الطيور، عن الكوكب الذي كان يزين السماء، عن قرص الشمس الذي كان يختفي خلف الأشجار، عن رفيقاتها في المدرسة، عن ثوبها وشرائطه، كنا نتفوّه بأشياء بريئة، ونحمرّ خجلًا نحن الاثنان..

تحوّلت الطفلة إلى فتاة شابة، وذات مساء صيفي، كنا نتمشّى تحت أشجار الكستناء الممتدة على طول الحديقة، بعدما ساد الصمت الذي صار يطول في أثناء نزهاتنا، أفلتت يدي فجأة، وقالت لي:

- هيا نركض..

ما زلت أراها و هي تركض، كانت متشحة بالسواد حدادًا على جدتها الراحلة. عبَرَت ذهنها فكرة صبيانية وعادت بيبيتا الطفلة الصغيرة، وأمرتني أن نركض..

انطلقت راكضة أمامي، بخصرها الرقيق الشبيه بخصر نحلة، وبقدميها الصغيرتين، ارتفع ثوبها ليكشف عن ساقيها، تبعتها، كانت تركض وكأنها تهرب مني، وكان الريح يرفع ثوبها الأسود أكثر فأكثر. مما سمح لي بأن أسترق النظر إلى جسدها الأسمر الفتي..

فقدتُ صوابي، التحقتُ بها قرب بئر قديمة، وطوّقتها من خصرها وأجلستها فوق العشب، لم تقاومني، ظلت تلهث وتضحك، أما أنا فقد غرقتُ في سواد عينيها الهدباوين..

بعد برهة قالت:

- اجلس، ما زال النهار طويلًا، لنقرأ شيئًا ما، أبحوزتك كتاب؟

كان لديَّ الجزء الثاني من كتاب "أسفار سبالنزاني"، فتحته بطريقة اعتباطية، ودنوت منها، وضعت كتفها على كتفي، وشرعنا نقرأ معا، بهدوء، كانت تقرأ أسرع مني، لذا كانت مجبرة على انتظار انتهائي من القراءة لأقلب الصفحة..

يومها، كان ذهني يشتغل بسرعة أقل من ذهنها، كانت تسألني عما إذا كنت قد انتهيت من قراءة الصفحة في حين أنني كنت ما أزال في البداية.

فجأة، تلامس رأسانا، تشابكت خصلات شعرنا، وامتزجت أنفاسنا، ثم اقتربت شفاهنا، وشرعنا يُقَبّل أحدُنا الآخر، غرقنا في القُبل المحمومة، إلى درجة أننا حينما أردنا استئناف القراءة، كان الليل قد أرخى سدوله..

قالت لأمها فور عودتنا لتُبَرّر تأخرنا:

- آه يا أمي، فقط لو عرفت كم ركضنا!

أما أنا، فقد بقيت صامتًا..

لاحظت أمي صمتي وقالت:

- لمَ لا تتكلم؟ تبدو حزينًا..

كان قلبي ممتلئًا، كنت أحسني في النعيم..

كانت أمسية ستظل ذكراها تحضرني طوال حياتي!

طوال حياتي؟

***

34

دقت الساعة، لم أتمكن من تحديد الوقت الذي أعلَنَته، لأنني لم أسمع جيدًا، من الواضح أن ثمة ضجيجًا شبيهًا بضجيج موسيقا صاخبة التصق بأذنيّ، أظنُّ أنه طنين أفكاري الأخيرة..

في هذه اللحظة الحرجة، وأنا أسترجع شريط ذكرياتي، استعدتُ تفاصيل جريمتي برهبة، ووجدتني نادمًا أكثر، مع أنني لم أكن أشعر بتأنيب الضمير قبل إدانتي، الآن، يبدو لي أنه لم يعد ثمة أي مكان في ذهني سوى لأفكار الموت، ومع ذلك، أرغب بشدة في إبداء أسفي وإعلان توبتي، عندما استعرضتُ حياتي السابقة، عدت فجأة من دوّامة الذكرى، على وقع صوت شفرة المقصلة التي ستُنهي حياتي بعد قليل. ارتعشت وكأنني علمتُ للتو بنبأ جديد..

آه، طفولتي الجميلة، شبابي الرائع! يتماهيان مع ثوب فاخر مُذهّب، لكن طرفه مخضّب بالدماء. بين ماضيّ وحاضري، هناك نهر من الدم يمتزج فيه دم ضحيتي بدمي، إذا أتى يوم وقرؤوا

قصتي. بعد إنهائهم قراءة الجزء الذي أحكي فيه عن سنوات براءتي وسعادتي، فلن يصدقوا قط أنني خُضْتُ هذه السنة الفظيعة التي بدأت بجريمة، وانتهت بإعدام. ستبدو لهم أحداثها غير متجانسة.

أوه، سأموت بعد سُويعات، أفكر في أنه في مثل هذا اليوم من السنة الفارطة، كنت رجلًا حرًّا نقيًّا، كنت أتنزه في فصل الخريف، وأتوه بين الأشجار، وأمشي فوق الأوراق الميتة المتناثرة على الرصيف..

***

35

في هذه اللحظة بالتحديد، في كل مكان قريب مني، في المنازل المحيطة بالمحكمة الثورية وبساحة غريف، وفي كل باريس، رجال يجيئون ويذهبون، يتحدثون ويضحكون، يقرؤون الصحف، يفكرون في أعمالهم الخاصة، باعة متجولون يعرضون بضائعهم، شابات يهيّئن أثوابهن التي سيحضرن بها إلى حفل راقص هذا المساء، وأمهات يلعبن مع أطفالهن..

***

36

أذكرُ أنه ذات يوم، عندما كنت طفلًا، ذهبت لأرى جرس نوتردام، كنت أشعر بالدوار لأنني ارتقيت السلم الحلزوني القاتم ولأنني عبرت الممر المتداعي الذي يربط بين البرجين..

كانت باريس تبدو كأنها تحت قدميّ. عندما دخلت إلى ذلك القفص الحجري الذي عُلّقَ فيه الجرس الضخم، وتقدّمت وأنا أرتعد فوق الألواح المتهالكة، وأنظر عن بعد إلى هذا الجرس الشهير جدًّا بين أطفال باريس وساكنتها كلها، لاحظت برُعب أن المارة يبدون كالنمل في أسفل البرج..

فجأة، دق الجرس الضخم، واهتزّ البرج تحت وقع الرنين الذي أطلقه الجرس ووصلت أصداؤه إلى الفضاء، مادت الأرضية الخشبية تحت قدمي، كدتُ أسقط، كنت أترنح، على أهبة الانزلاق، من فرط هلعي، استلقيت فوق الألواح الخشبية وأنا أغلق أذنيّ بيديّ بقوة، بقيت هناك صامتًا، وأنا أحبس أنفاسي، أعاني ذاك الطنين الرهيب في أذنيّ، وتحت بصري تلك

الهوة السحيقة، العميقة التي كان يلتقي فيها العابرون مطمئنين. غبطتُهم في نفسي..

يبدو لي الآن، أنني لا أزال عالقًا في برج نوتردام ذي الجرس المدوي، الذي كان في آن خانقًا ومُبْهِرًا. هناك ضجيج جرس يُقْرَعُ داخل تجويفي الدماغي، حال دوني ودون استمرار رؤيتي لحياتي السابقة، الهادئة، والمنظّمة، التي حُرِمْتُها، في حين لا يزال رجال آخرون يحيونها، يسيرون في طرقاتها، وهم بعيدون كل البعد عن هاويات العَدَم.

***

37

إن قصر البلدية لمبنى بشع. بسقفه الطويل، الحاد، الصلب، وبجرسه الغريب، وساعته الكبيرة البيضاء، بطوابقه ذات النوافذ الصغيرة، الشبيهة بِخانات متقاطعة، بسلالمه المهترئة من فرط الخطوات التي خطاها آلاف الناس الذين ارتقوها، بالقوسين اللذين يتواجدان على يمينه ويساره، إنه ماثل هناك، في الجهة المقابلة لساحة غريف: معتم، كئيب، واجهته متآكلة، هرِمة، مسودة بالأدران إلى درجة أنه يبدو أسود تحت نور الشمس الساطع..

في أيام تنفيذ الإعدامات، يلفظ جوفه دركيين يخرجون من أبوابه كلها، ثم يبقى ثابتًا في مكانه، وكأنه يراقب المحكوم عليه من كل نوافذه. وفي الليل، تبقى ساعته الغريبة – التي أعلنت عقاربها موعد تنفيذ الحكم – لامعة وراقة على واجهته المعتمة، التي تبدو و كأنها لم تشهد وقائع إعدام شنيع..

38

إنها الواحدة والربع..

ها هو ما أحسّه الآن:

- ألم حاد في الرأس، ضلوع باردة، جبين ملتهب..

- كلما نهضت أو انحنيت، يهيأ لي أن هناك سائلا يسبح داخل دماغي ويجعله يرتطم بجمجمتي.

- أعاني تشنجات لا إرادية، ومن حين إلى آخر يَسقط القلم من يدي وكأنه يسقط جراء صدمة كهربائية.

- عيناي تحترقان كأنني محاصر بالدخان.

- مرفقاي يؤلمانني.

لا تزال أمامي ساعتان وخمس وأربعون دقيقة لأشفى نهائيًا من آلامي..

39

يزعمون أن الأمر سهل للغاية. أننا لا نتألم ولا نعاني. أنها نهاية ناعمة ولطيفة. وأن الموت بهذه الطريقة جد بسيط..

آه. لكن ماذا عن هذه الاحتضارات البطيئة التي تُرافق المحكوم عليه لستة أسابيع. والاختناقات التي يتعرض لها كل يوم؟ ماذا عن القلق والمخاوف التي تصاحبه طوال يوم التنفيذ. هذا اليوم الذي يتسبب في خسائر لا تُعوَّض؟ هذا اليوم الذي يمضي ببطء شديد في بدايته وينتهي في لمح البصر. وماذا عن سُلّم العذابات الذي يقود إلى المقصلة؟

على ما يبدو. كل ما ذكرتُه لا يمتُّ إلى الألم والمعاناة بِصلة..

أليست هناك تشنجات. ذات التشنجات التي يعقبها انهمار الدم حتى آخر قطرة؟ ألا يُفرِغون السُّجناء من دمائهم؟ ألا يطفئون للأبد شعلة تفكيرهم وجذوة أرواحهم؟

رغم كل هذا، يجزمون أننا لا نتألم ولا نعاني. أهُمْ متأكدون من ذلك؟ من خَبّرَهم بهذا؟ هل سبق أن حكى أحدهم لهم أنه ذات مرة ارتفع رأس مقطوع فوق المنصة في الهواء، وصاح في الحشد وهو يقطر دمًا:

- هذا غير مؤلم بتاتًا!

وهل عاد شبح أحد الموتى الذين قتلوهم بطريقتهم الناعمة ليشكرهم ويقول لهم:

- إنه اختراع عظيم، أبْقُوا عليه، الموت بطريقة ميكانيكية جد رائع..

أكان ذاك العائد شبح السياسي "روبيسبير"، أم شبح الملك لويس السادس عشر؟

سيصرّون على ادعاءاتهم: لا، إنه لا شيء، ينتهي الأمر بِرُمّته في أقل من دقيقة، ألَمْ يسبق لهم أن تخيلوا أنفسهم في مكان المحكوم، في اللحظة التي تهوي عليه فيها الشفرة الثقيلة للمقصلة، لتقطع رأسه وأوصاله، وتسحق عظامه وفقراته؟

- " ماذا هنالك؟ نصف ثانية، ثم يتلاشى الألم.."

يا لَفظاعتهم!

***

40

إنه من الاستثنائي أنني أفكر اليوم بدون انقطاع في الملك. مهما أحاول. مهما أفعل. مهما أهزّ رأسي لأطرد منه هذه الأفكار. أسمع صوتًا يهمس لي في أذني بلا توقف:

- في هذه المدينة. وفي هذه الساعة. في قصر آخر ليس بعيدا عن هنا. يوجد رجل يقف الحراس أمام كل أبوابه. رجل فريد من نوعه. مثلما كنتَ أنت رجلًا فريدًا و مميزًا بين أفراد الشعب الآخرين. الفرق بينكما هو أنه في مقامٍ عالٍ. في حين أنك الآن في مكان منحط. حياته كلها. دقيقة تلو دقيقة. ليست مكونة سوى من المجد. العظمة. الملذات. والثمالة. كل المحيطين به يحبونه ويُجِلّونه. بل يقدسونه. في حضرته. أعلى الأصوات تصبح خفيضة. وأرفع الرؤوس تنحني أمامه. لا شيء تحت نظره عدا الحرير والذهب. ربما كان في هذه الساعة يترأس مجلس وزراء كلهم لن يخالفوا رأيه. أو يخطط لرحلة قنص يوم غد. أو يفكر في الحفل الراقص لهذا المساء. وهو هانئ ومتأكد من أن الحفل

سيأتي في أوانه. لذا يترك الآخرين يدبرون وينظمون حفلاته ومباهجه دون أن يبذل أدنى مجهود. إنه ليس بإله. إنه رجل من لحم ودم مثلك تمامًا. لكن كي لا تبقى المقصلة الفظيعة منصوبة من أجلك. ولكي تستعيد كل ما ستخسره في التو واللحظة: الحياة. الحرية. الثروة. العائلة. يكفي أن يصدر أمره بالعفو وأن يكتب اسمه المكون من سبعة أحرف في قطعة الورق تلك. أو أن تمر عربته الملكية الذهبية مصادفة قرب العربة التي ستقلّك إلى غريف. إنه طيب. سيشفق من حالك. وهذا لن يتطلب منه الكثير. ورغم ذلك. لن يحصل أي شيء من هذا. ولن يعفو عنك!

***

41

فليكن ذلك إذًا! يجب أن نقف بشجاعة أمام الردى. لنأخذ هذه الفكرة المريعة. نقلّبها من شتى الجوانب. لنعرف ماهيتها ونتقصّى معناها. ونعرف ماذا تريد منا. لنُحلّل هذا اللغز. ونلقي نظرة مسبقة على القبر..

يبدو لي أنه ما إن تُغمَض عيناي. سألمح نورًا ساطعًا. وفجوة مضيئة ستهيم فيها روحي إلى ما لا نهاية. يهيأ لي أن السماء ستكون وهّاجة. وأنها لن تكون بحاجة إلى كواكب تضيئها: لذا. ستبدو هذه الكواكب كَنُقط سوداء تزين ثوبًا ذهبيًّا. ولن تبقى في نظري وأنا ميت مثلما يراها الأحياء. أحجارًا صغيرة. براقة. تُرَصّع السماء المخملية السوداء..

أو ربما. لأنني بائس لعين. سأسقط في هاوية سحيقة. بشعة. محفوفة بالظلمات. سأهوي فيها إلى الأبد وأنا أرى بداخلها أشكالًا آدمية تتحرك في ظلماتها.

أو ربما، عندما أستيقظ بعد سقوط المقصلة على رأسي، سأجدني باحثًا عن رأسي المتدحرج، على سطح أرض مستوية رطبة، زاحفًا في الظلام، وأنا أدور حول نفسي، يُخَيّل إليَّ أنه ستكون ثمة ريح قوية ستدفعني وستتسبب في اصطدامي برؤوس مندحرجة أخرى هنا وهناك. سيكون ثمة بِرَك وسواقٍ يجري فيها سائل مجهول دافئ، كل شيء بداخله سيكون أسود، وعندما أرفع عينيّ، لن تريا سوى سماء من الظلال التي تضغط عليها بطبقاتها الكثيفة، وبعيدا، ترتفع أقواس دخّانية أشد اسودادًا من بحر الظلمات، سأرى أيضًا شرارات صغيرة حمراء، ولدى اقترابها ستصير طيورًا من نار، وسأبقى على هذه الحال طيلة الأبدية..

من الوارد أيضًا أنه في أوقات معينة، يجتمع موتى ساحة غريف، في ليالي الشتاء المدلهمة، في تلك الساحة التي صارت مِلكهم، سيشكلون جمعًا شاحبًا وداميًا، وسأكون معهم لا محالة، ستكون ليلة يتوارى فيها القمر، وسنتحدث بأصوات منخفضة، سيكون قصر البلدية هناك أيضًا، بواجهته المتآكلة، سطحه المهترئ، وبساعته التي لم تكن رحيمة بنا جميعًا، ستكون في الساحة مقصلة جحيمية، وسيقوم شيطان بِقَطْف رأس الجلاد، سيحدث هذا على الساعة الرابعة صباحًا، وبدورنا، سنتحلق حوله..

من المحتمل أن هذا ما يحدث فعليًا، ولكن، إذا كان هؤلاء الموتى يعودون، فما الهيئة التي يتخذونها؟ ماذا يتبقى لهم من

أجسادهم غير الكاملة التي نُكّلَ بها؟ ماذا سيختارون يا ترى، الرأس أم الجذع ليكون وعاء لأشباحهم؟

وا أسفاه! ماذا يفعل الردى بأرواحنا؟ ماذا سيأخذ وماذا سيترك لها من بشريتها؟ وأين سيضعها؟ هل سيُعيرها أعينا حية لترنو إلى الأرض وتبكي؟

آه، قس، أحتاج إلى قسٍ عليم بكل هذا. أريد قسًا وصليبًا لأُقَبّله..

يا إلهي، ما زلت أطمع في رحمتك!

***

42

رجوتهم أن يدعوني أنام، وارتميت على الفراش..

في الواقع، كان لديَّ دَفَق من الدم يسري في دماغي، مما جعلني أنام، إنه نومي الأخير على هذه الأرض..

حلمت بأن الوقت ليلًا، هيِّئ لي أنني كنت في مكتبي مع صديقين أو ثلاثة، لم أعد أذكر من كانوا بالضبط، كانت زوجتي نائمة في الغرفة المجاورة رفقة طفلتنا، كنا نتكلم بأصوات خافتة، لأننا كنا نقول أشياء خطيرة تُهدِّد حياتنا، بغتة، سمعتُ صوتًا آتيًا من مكان ما من إحدى غرف البيت، صوتًا خفيضًا، غريبًا، غير محدد، أصدقائي كذلك سمعوا ما سمعته، أصخنا السمع، كان ذاك الصوت شبيهًا بصوت كسر قفل الباب، تجمدنا في أمكنتنا، كنا جد خائفين، فكرنا في أنه ربما كان الأمر يتعلق بلصوص اقتحموا بيتي في هذه الساعة المتأخرة من الليل، قررنا أن نذهب لنستطلع الأمر، نهضت، أخذت شمعة، وتبعني أصدقائي الواحد تلو الآخر..

اجتزنا غرفة النوم المجاورة. كانت زوجتي تنام هي والطفلة. ثم عرجنا على الصالون. لا شيء. كانت الصور المعلقة على الحائط الأحمر ساكنة في إطاراتها الذهبية. خُيّل إليَّ أن الباب الفاصل بين الصالون وغرفة الطعام لم يكن في مكانه الطبيعي. دخلنا إلى غرفة الطعام. فتشناها جيدًا. كنت أتقدمهم. كان الباب المؤدي إلى الدرج محكم الإغلاق. والنوافذ أيضًا. عندما وصلت قرب الموقد. لاحظت أن الدولاب كان مفتوحًا. وأن بابه المفتوح على مصراعيه كان يلامس زاوية الحائط. وكأنه يُخفي أحدًا. تفاجأت. ظننا أن هنالك شخصًا ما خلف باب الدولاب. مددتُ يدي لأغلق الدولاب لكن الباب قاومني. بقيت مندهشًا. ثم دفعته بطريقة أقوى. بعد عناء. أقفلته. وبغتة. اكتشفت وراء الباب عجوزًا قصيرة. يداها متدلّيتان. عيناها مغلقتان. ساكنة. واقفة كأنها ملتصقة بزاوية الحائط. كان منظرًا بشعًا. وقف شعر رأسي لرؤيته. سألت العجوز:

- ماذا تفعلين هنا؟

لم تجبني. سألتها مُجدَّدًا:

- من تكونين؟

لم تُجِب. لم تتحرك. و بقيت عيناها مغلقتين..

قال أصدقائي:

- إنها بلا شك شريكة أولئك الذين دخلوا إلى بيتك بِنيات سيئة، لقد فرّوا بعدما سمعونا قادمين، وهي لم تستطع الفرار فاختبأت هنا..

سألتها مرة أخرى، ظلت خرساء، جامدة، خابية النظرات. دفعها أحد أصدقائي وأسقطها على الأرض، سقطت دفعة واحدة، كَلَوح خشب، كشيء ميت، حرّكناها بأقدامنا، بعدها، قمنا برفعها وبتثبيتها على الحائط، لم تعطِ أي مؤشر على الحياة، صرخنا في أذنها، ظلت خرساء وكأنها وُلِدَت صمّاء، فقدنا صبرنا، كان خوفنا مشوبًا بغضب، قال أحدنا:

- ضعوا شمعة تحت ذقنها.

وضعت الفتيلة المشتعلة تحت ذقنها المدبّب، أخيرًا، فتحت عينًا نصف فتحة، عينًا فارغة، باهتة، مريعة، عمياء، نزعتُ الشمعة وقلت:

- آه، أخيرًا ستجيبينني أيتها الساحرة العجوز، من أنت؟

أغلقَتْ عينها مُجدَّدًا بطريقة آلية..

صاح أصدقائي:

- يا له من أداء قوي! هيا، ضع الشمعة مُجدَّدًا تحت ذقن العجوز المتحايلة، يجب أن تتكلم رغمًا عنها..

امتثلتُ لأمرهم وأعدت الكَرّة..

في هذه المرة، فتحت عينيها الاثنتين معا ببطء، نظرت إلينا الواحد تلو الآخر، و بعدها انحنت فجأة وأطفأت الشمعة بأنفاسها الباردة، في ذاتِ اللحظة التي أحسست فيها بأسنانها الثلاثة الحادة تنطبع في يدي، كَوَشمٍ في الظلام..

استفقتُ وأنا أرتعد وأسبح في عَرَق بارد، كان قس السجن الطيب قد أتى أخيرًا، وجلس على حافة فراشي وهو يتلو صلواته، سألته:

- هل نمتَ طويلًا؟

أجابني:

- لقد نمتُ ساعة يا بني، لقد جلبوا طفلتك، إنها هنا في الغرفة المجاورة تنتظرك، لم أرغب في أن أوقظك..

صحت:

- أوه، طفلتي، فليجلبوا لي طفلتي!

***

43

إنها كوردة يانعة. عيناها واسعتان. إنها جميلة..

ألبسوها فستانًا صغيرًا يناسبها تمامًا..

أخذتها. حملتُها بين يدي. أجلستها على ركبتي. ولثمت شعرها..

لماذا لم ترافقها أمُّها؟ أمها مريضة. جدتها أيضًا (هذا جيد)!

كانت تنظر إليَّ بدهشة. تركتني أُداعبها وأعانقها وأغمرها بقُبلاتي. ولكنها من حين لآخر كانت تُلقي نظرة قلقة على مُربيتها التي كانت تبكي في زاوية الغرفة..

أخيرًا استطعت أن أكلمها. قلت:

- ماري. صغيرتي ماري..

كنت أضمُّها بشدة إلى صدري المختنق بالدموع. نَدّت عنها صرخة صغيرة. وقالت:

- أوه، إنك تؤلمني سيدي..

سيدي! منذ سنة لم ترني، الطفلة المسكينة، لقد نسيتني، نسيت وجهي وصوتي ولكنتي، ثم من سيتعرف علي بهذه اللحية، هذه الملابس وهذا الشحوب؟ ماذا؟ هل مُحِيتُ من هذه الذاكرة، الذاكرة الوحيدة التي أردت أن أحيا بها..ماذا؟ لم أعد أبًا منذ مدة! هل حُكِمَ عليَّ أيضًا بألا أسمع هذه الكلمة، هذه الكلمة الخاصة بقاموس الأطفال، هذه الكلمة الرقيقة: بابا!

ولكن، كل ما كنت أرجوه مقابل سنواتي الأربعين التي سيسلبونها مني هو سماع هذه الكلمة مرة أخرى، مرة واحدة، من هذا الثغر الصغير الجميل..

أمسكت يديها الصغيرتين بين يدي وقلت لها:

- اسمعي يا ماري، ألا تعرفينني بالمرة؟

نظرت إليَّ بعينيها الجميلتين وردت:

- في الحقيقة، لا..

كررتُ سؤالي:

- انظري جيدًا، كيف لا تعرفين من أكون؟

قالت:

- بلى، أنت رجل..

يا للأسف! أن تحب بكل جوارحك كائنًا واحدًا في العالم. أن تحبه كل هذا الحب. ويكون أمامك. يراك وينظر إليك. يكلمك ويجيبك. ولا يتعرف إليك! أن يكون الوحيد الذي تريد منه أن يواسيك. وأن يكون الوحيد الذي لا يعرف أنك تحتاج للمواساة لأنك ستموت!

قلت:

- ماري. هل لك أب؟

قالت الطفلة:

- نعم سيدي..

عقّبتُ:

- إذًا. أين هو؟

رفعت عينيها الواسعتين باستغراب وردت:

- آه. أنت لا تعرف إذًا؟ إنه ميت..

ثم طفقت تبكي. كدت أتركها تقع من بين يديَ..

قلت:

- ميت! ماري. هل تعرفين معنى الموت؟

أجابت:

- نعم سيدي. إنه في التراب وفي السماء أيضًا..

وأردفت بتلقائية:

- إنني أصلي إلى الرب الرحيم من أجله صباحًا ومساء على ركبتيْ أمي..

قبّلتُها على جبينها قائلًا:

- ماري، رَتّلي عليّ صلاتك..

ردت:

- لا أستطيع سيدي، الصلاة لا تُتلى في النهار، تعالَ هذا المساء إلى منزلي وسأتلوها عليك..

اكتفيت من هذا، قاطعتها:

- ماري، أنا والدك..

صاحت باستغراب:

- آه!

استطردتُ:

- هل تريدين أن أكون أباكِ؟

أشاحت بوجهها عني، وقالت:

- لا، بابا كان أوْسَم بكثير..

غمرتها بقبلاتي ودموعي، حاولت أن تُفلت من بين ذراعيّ وهي تصرخ:

- إنك تؤلمني بلحيتك..

أجلستُها مرة أخرى على ركبتي وأنا ألتهمها بعينيَّ، ثم سألتها:

- ماري، أتعرفين القراءة؟

ردت:

- نعم، أقرأ جيدًا، ماما تجعلني أقرأ الرسائل..

قلت لها وأنا أشير إلى ورقة مجعدّة ثناياها كانت تمسكها بين يديها الصغيرتين:

- اقرئي لي قليلًا..

هزت رأسها الصغير الجميل، وقالت:

- في الحقيقة، أنا أعرف قراءة القصص فقط..

قلت لها:

- حاولي، أرجوك، اقرئي..

فتحت الورقة وسَوّتها، وبدأت تتهجى وهي تُشير بأصبعها:

- ق..ر..قر..ا..ر..ار..قرار..

خطفتُ الورقة من بين يديها، كانت تقرأ عليَّ قرار إعدامي، كانت مربيتها قد ابتاعته بِفلس، بينما كان يكلفني أنا أكثر بكثير طبعًا..

لا توجد كلمات تُعَبّر عما كان يخالجني من أحاسيس. ارتعبت ماري بسبب حركتي العنيفة، كانت تقريبًا تبكي، فجأة قالت لي:

- أعِدْ إليَّ ورقتي، إنني ألعبُ بها..

أعدتُ الورقة إلى مربيتها قائلًا:

- خذي الطفلة..

تداعيتُ فوق الكرسي وأنا أحسّني فارغًا، يائسًا، بِرُوح مظلمة. يجب أن يأتوا في هذه اللحظة، لم أعد متمسكًا بشيء، آخر وَرِيد كان على قيد النبض في قلبي قد تمزَّق، أنا الآن مُهيَّأ لما سيفعلونه بي..

***

44

القس طيب، والسجان كذلك. لقد هُيِّئَ لي أنهما ذرفا الدمع حين أمرتُ بأن يأخذوا طفلتي التي لم تتعرف إليَّ..

والآن، قَضِيَ الأمر. يجب أن أقوّي نفسي وأن أفكر بجِدية في الجلاد، في عربة الموت، في الدركيين، في الحشد المتعطش على الجسر وعلى الرصيف، في المتفرجين خلف النوافذ، وفي ما حضروه من أجلي خصيصى في ساحة غريف الكئيبة، التي من الممكن أن تُرصَف بالرؤوس التي شَهِدَتْ سقوطها..

أظن أنه لا تزال أمامي ساعة أخرى لأعتاد الفكرة، وأُجهِز نفسي لكل هذا..

***

45

كل المتفرجين سيضحكون ويصفّقون، وسيكون من بين هؤلاء الرجال، الأحرار والغرباء، الذين يركضون بِجَذلٍ ليشاهدوا تنفيذ الإعدام، في هذا الحشد من الرؤوس المتشوِّقة التي ستُغطي الساحة، سيكون هناك أكثر من رأس قُدّرَ له أن يتبع رأسي إن عاجلًا أم آجلًا، لتتلقّفه سلة الرؤوس الحمراء، التي تقطر دمًا، أكثر من شخص ممن أتوا إلى ساحة غريف من أجلي، سيحل يوم ويأتون ليشهدوا إعدامهم الخاص..

بالنسبة لهؤلاء الأشخاص الفتّاكين، ثمة نقطة سوداء معيّنة بانتظارهم في ساحة غريف، مركز جذب، فَخّ، يدورون حوله بلا هوادة، إلى أن يسقطوا فيه..

***

46

صغيرتي ماري!

لقد أخذوها لتلهو. لترنو إلى الحشد عبر نافذة العربة التي ستعيدها إلى المنزل. وقد نسيت كل ما يتعلق بذاك "السيد" الذي قابَلَتْهُ..

ربما لا يزال أمامي متسع من الوقت لأكتب إليها بضع صفحات. عساها أن تقرأها ذات يوم. وتذرف الدمع بعد خمسة عشر عامًا على مرور هذا اليوم..

أجل. ينبغي أن تعرف قصتي مني أنا. وليس من شخص آخر. كما يجب أن تعرف السبب الذي يجعل الاسم العائلي الذي خلفته لها مُضَمَخًا بالدم..

***

47

قصتي..

(ملحوظة الناشر: لم نتمكن بعد من العثور على الأوراق المرتبطة بهذا الفصل، من الممكن- كما يظهر من الأوراق الموالية - أن الوقت لم يسمح للمحكوم عليه بالإعدام بأن يكتب قصته..كان الأوان قد فات حينما جاءته فكرة كتابة قصته.)

***

48

(من إحدى غرف قصر البلدية)

هأنذا في قصر البلدية. الطريق الطويل. الكريه. شارف على نهايته. تلوح لي عبر النافذة ساحة غريف. حيث ينتظرني حشد مقيت. يصرخ. ينبح ويضحك..

خذلني قلبي. رغم محاولاتي لأقويّ نفسي ولأتحكم في أعصابي. خانتني شجاعتي حين رأيت ظِلّ المقصلة بطرفيها القاتمين وبشفرتها الشبيهة بمثلّث أسود منصوبة بين عمودين من أعمدة الرصيف..

طلبت منهم أن يسمحوا لي بأن أُدلي بتصريح أخير. تركوني هنا وذهبوا ليبحثوا عن المدعي العام. إنني أنتظره. علّني أكسب بعض الوقت..

دقت الساعة الثالثة. أتوا ليُعلِموني بأن الوقت قد حان. ارتعشت وكأنني لم أكن أتوقع ذلك. وكأنني استطعت أن أفكر

طوال الست ساعات الماضية. طوال الستة أسابيع المنصرمة. طوال الستة أشهر في شيء آخر..

جعلوني أعبر الممرات وأنزل السلالم. دفعوني بين بوابتين في الطابق التحت أرضي، داخل قاعة مظلمة، ضيقة، ذات سقف مُنْحَنٍ، مضاءة إضاءة شديدة الخفوت في هذا اليوم الماطر، الضبابي. كان يتوسطها كرسي. طلبوا مني أن أجلس فامتثلت لأمرهم..

بالقرب من الباب، وعلى طول الجدران، كان يقف ثلاثة أشخاص، بالإضافة إلى القس ورجال الدرك. الشخص الأول كان الأطول بينهم وأكبرهم سنًا، كان سمينًا ووجهه مُحْمَرًا، كان يرتدي سترة طويلة وقبعة قديمة مثلثة الأطراف، كان هو، الجلاد، خادم المقصلة. أما الشخصان الآخران فقد كانا مساعديْه.

ما إن جلستُ حتى اقترب مني مساعداه مثل قطيْن، وبعدها، فجأة، أحسست ببرودة مقص الشعر تسري في رأسي، وبطرفيه الحادين يحتكان بأذني، شعري الذي قصّوه كيفما اتفق، كانت تسقط خصلاته على كتفي فيما كان الجلاد ينفضها برفق بيديه الغليظتين.

كان هناك ضجيج عظيم في الخارج، كَرَعْد يدوّي في الفضاء، اكتشفتُ وأنا أسمع ضحكات صاخبة أن ذاك الضجيج مصدره

الحشد، قرب النافذة. كان هناك شابٌ يُدوّن بِقلم شيئًا ما في مفكرته. استفسرَ أحد السجانين عما يفعلونه في هذه اللحظة. فأجابه بأنهم يُهيئونني من أجل المقصلة..

فهمت أن هذا سيُنْشَر غدًا في الصحيفة..

فجأة، خلع أحد المساعدين سترتي، فيما أمسك الآخر يديّ المتدليتين وقَيّدهما وراء ظهري. أحسست بالحبل يلتف حول معصميّ المتقاربين. وفي نفس الوقت، فَكّ الآخر ربطة عنقي، ثم تردد قليلًا أمام قميصي الفاخر، الذي كان كل ما تبقى لي من حياتي الباذخة، الماضية، قبل أن يشرع في قص ياقته..

أمام هذا الإجراء الشنيع، والإحساس بالمقص البارد الذي يلامس عنقي، جفلت وأطلقت صرخة مكتومة، ارتعشت إثرها يد مساعد الجلاد وقال لي:

- أعتذر سيدي، هل آلمتك؟

يا لَرِقَةِ هؤلاء الجلادين!

كانت صيحات الحشد تتعالى أكثر فاكثر في الخارج. أهداني الجلاد السمين ذو الوجه المحتقن منديلًا مبلًلا بالخل لأستنشقه، قلت له بأعلى نبرة ممكنة:

- شكرًا، هذا غير مُجْدٍ، أنا على ما يرام..

بعدها انحنى أحدهم وربط قدميّ بالاستعانة بحبل رقيق وخشن، لم يكن يسمح لي سوى بأن أخطو خطوات صغيرة، ثم قاموا بِوَصل هذا الحبل بالحبل الذي قيّدوا به يديّ. وبعدها، ألقى الجلاد السترة على ظهري، وربَط كُمّيْها معًا تحت ذقني، كانت المهمة الموكولة إليه هنا شبه منتهية. اقترب مني القس وهو يحمل صليبه وقال:

- هيا بنا بنيّ!

أمسكني مُساعدا الجلاد من ذراعيّ، قمت، حاولت المشي ولكن خطواتي كانت رخوة ومتعثرة..

في تلك اللحظة، فُتح الباب الخارجي الضخم على مصراعيه، هاجمتني هتافات ساخطة، ريح باردة وضوء أبيض وأنا ما أزال في الظل، من خلف الباب القاتم، رأيت فجأة كل شيء في ذات اللحظة، عبر المطر ما يناهز ألف رجل و امرأة مكدسين على حافة درج القصر يصرخون ويهتفون، وعلى اليمين، بالضبط على عتبة القصر، صَفٌّ من الفرسان الذين لم يسمح لي الباب المنخفض سوى برؤية أرجل أحصنتهم وسُروجها، في الجهة المقابلة، كان هناك صفٌ من الجنود المشاة المسلحين، وعلى اليسار كانت تقف عربة أسندوا إليها سُلّمًا، كانت لوحة بشعة تلك التي رأيتها، إطارها هو بوابة السجن..

من أجل هذه اللحظة التي كنتُ أخشاها. احتفظت برباطة جأشي. خطوت ثلاث خطوات وظهرت على عتبة البوابة. صاح الحشد:

- ها هو. ها هو. إنه آتٍ أخيرًا!

المتفرجون الذين كانوا يقفون بالقرب مني بدؤوا يصفقون. أكثر مما يصفق أبناء الشعب الأوفياء المُتَيَمون بالملك لدى رؤيتهم إياه..

كانت العربة عادية. بحِصان هزيل للغاية. وحوذي يرتدي قميص عمل أزرق. بمربعات حمراء. تمامًا كتلك التي يرتديها الفلاحون والعُمَال في نواحي بيسيتر.

كان الجلاد هو أول من يصعد على متن العربة. صاح أطفال كانوا يتسلقون القضبان الحديدية لقصر البلدية:

- صباح الخير سيد " سامسون "!

تَبِعَه أحد مساعديه. صاح الأطفال من جديد:

- برافو سيد " ماردي "!

جلسا هما الاثنان في مقدمة العربة. أتى دوري لأصعد. صعدت بِثبات..

قالت امرأة تقف قرب رجال الدرك:

- إنه بِخَيْر!

هذا المدح الفظيع زَوّدَني بالشجاعة، قَدِمَ القس وأخذ مكانه قربي، أجلسوني على المقعد الخلفي موليًّا ظهري إلى الجلاد، سرت القُشعريرة في جسدي بسبب اهتمامهم بالتفاصيل الدقيقة، إنهم يضعون جرعات من الإنسانية في إعداماتهم الوحشية..

أردتُ أن أنظر حولي، لكنني أينما ولّيت وجهي كنت أرى الدرك في كل مكان، والحشد، فالحشد، ثم الحشد، بحر من الرؤوس يَمُورُ في الساحة..

مجموعة من الفرسان كانت بانتظاري أمام باب القصر، أعطى الضابط الأمر، تحركت العربة والموكب المرافق لها، كانت تبدو كأنه يتم دفعها من طرف أفراد الشعب الهائجين، اجتزنا البوابة الحديدية، في اللحظة التي استدارت فيها العربة صوب جسر "أوشانج"، ضجّت الساحة من الرصيف إلى أسطح البيوت، وردّدت الجسور الصدى الذي اهتزت له الأرض، ثم التحقت بنا طليعة إضافية من الفرسان..

صدحت آلاف الحناجر في آن واحد مثلما يهتفون للملك:

- انزعوا قبعاتكم، انزعوا قبعاتكم!

أطلقتُ ضحكة مدويّة وقلت للقس:

- هم سيخلعون قبعاتهم وأنا سَيُخْلَعُ رأسي..

سارت العربة بإيقاع بطيء..

كان الرصيف يعبق بشذا الورود، كان ذلك يوم السوق الأسبوعية، تركت بائعات الورود باقاتهن من أجلي..

في الجهة المقابلة، قبل البرج المربّع الذي يوجد عند زاوية القصر، كانت هناك كباريهات، تعجُّ بالمتفرجين السعداء بمواقعهم الإستراتيجية خاصة النساء منهم، كان ذاك اليوم جيدًا بالنسبة لمالكي الكباريهات، كانوا يؤجرون الطاولات، الكراسي، المنصات، العربات. كان كل مكان غاصًا بالمتفرجين. كان المتاجرون بالدماء البشرية يصيحون بأعلى أصواتهم:

- مَن يريد مكانًا؟

اجتاحتني نوبة هيجان ضد هذا الحشد، واعترتني رغبة في أن أصرخ:

- مَن يريد مكاني أنا؟

كانت العربة تتقدَّم، وكلما خَطَت خطوة إلى الأمام، كان الحشد يلاحقها، وكنت أراه بعينيّ التائهتين يتجمهر في نقاط أخرى سيمر منها موكبي..

عندما وصلنا إلى جسر أوشانج، نظرت مصادفة خلفي من جهة اليمين، توقف نظري على الرصيف الآخر، على برج أسود منعزل، تغطيه زخارف بشعة وعلى قمته مُجَسّمان

حجريان لِوَحْشَين، لا أعلم لماذا سألت القس عن اسم البرج، أجابني الجلاد:

- إنه برج "سان جاك لا بوشري".

أجهل كيف استطعت ألا أفوّت أي شيء مما كان يجري من حولي، رغم المطر والضباب اللذين كانا يحجبان الرؤية نسبيًا، كل هذه التفاصيل التي رأيتها تعذبني، كل الكلمات قاصرة عن وصف مشاعري في هذه اللحظة.

في منتصف الجسر الذي كنا نجتازه بصعوبة، لأنه رغم كونه واسعًا كان مكتظًا، اعتراني خوفٌ قوي، خشيت أن أنهار وتنهار كبريائي. تقوقعت على نفسي كي لا أبصر ولا أسمع شيئًا عدا القس، الذي كنت أسمع كلماته بصعوبة كونها كانت تختلط بصياح الجماهير..

انحنيت ولَثَمْتُ الصليب، قلت:

- كن رحيمًا بي أيها الرب!

ثم استغرقت في التفكير.. لكن كل اهتزاز للعربة كان يجعلني أرتجّ، وبعدها، على حين غرّة، أحسست ببرد قارس يخترقني، كان المطر قد بلّل ثيابي ورأسي الحليق، سألني القس:

- أترتجف من البرد يا بني؟

أجبته:

- نعم..

للأسف، لا أرتجف فقط جرّاء البرد..

ونحن ننعطف من الجسر، رَثَتْني بعض النسوة لِصِغر سني..

أشرفنا على نهاية الطريق القاتل، كنت قد بدأت أفقد قدرتي على الرؤية وعلى السماع، كل هذه الأصوات والرؤوس المطلة من النوافذ والأبواب وعتبات المتاجر والأعمدة، كل هؤلاء المتفرجين البشعين والقُساة، هذا الحشد الذي يعرفني كل شخص فيه رغم أنني لا أعرف أيًّا منهم، هذا الطريق الزاخر بالوجوه البشرية..

كنت كَرَجل ثَمِلٍ، غبي، فاقد للوعي..كان شعورًا لا يطاق بالنسبة إليّ، كنت أرزح تحت ثقل كل تلك النظرات الموجّهة إليّ، شرعت في التمايل على المقعد دون أن أكترث حتى

للقس وصليبه، لم أعد أميّز صيحات الشفقة من صيحات البهجة وأنا عالق في الدوّامة المحيطة بي من كل جانب، اختلط عليّ الضحك والرثاء، الأصوات البشرية والضجيج، كل ذلك كان بالنسبة إليّ صوتًا لا يطاق يتردد في رأسي كَصدًى طرقات صانع النحاس على وعاء فارغ..

كانت عيناي تقرآن آليًّا لافتات المحلات، حملني فضول غريب على الالتفات لمعرفة الاتجاه الذي نسلكه، كان هذا منتهى التبجّح والتذاكي، لكن جسدي لم يمتثل لي، وأحسستُ برقبتي مشلولة وكأنها قد ماتت سَلَفًا..

لمحت فقط جانبًا من أحد برجيْ نوتردام خلف النهر، الذي كان يبدو من هنا كأنه يُخفي برجه التوأم، الذي يرفعون عليه العلم، هناك كان الكثير من الناس الذين يرغبون في التفرج عليَّ بدورهم..

ظلت العربة تتقدم وتتقدم، مخلفة وراءها الدكاكين واللافتات المكتوبة، المرسومة، المذهبة، والجمهور الذي كان يضحك ويغوص في الوحل، استسلمت أخيرًا مثلما يستسلم النائمون بِعُمق لأحلامهم..

بغتة، غابت المحلات التجارية عن نظري، كنا قد وصلنا إلى الساحة، صار صوت الحشد أكثر ارتفاعًا وحدة وابتهاجًا، توقفت العربة على حين غرة، شارفتُ على السقوط رأسًا على عقب، أسندني القس وهو يهمس:

- تشجّع..

جلبوا سُلمًّا وضعوه خلف العربة، أمسكني القس وساعدني على النزول، خطوت خطوة ثم حاولت أن أقوم بخطوة ثانية، عجزت عن ذلك. بين عموديْ الرصيف رأيت شيئًا فظيعًا.

أوه، إنه تجسيد الحقيقة!

توقفتُ كأنني أترنَّح تحت وقع الضربة مسبقًا، صحت بوَهن:

- أريد أن أدلي بتصريح أخير!

أصعدوني إلى المنصة، طلبت منهم أن يتركوني أكتب رغباتي الأخيرة، فَكّوا وثاق يديّ، لكن الحبل الذي كان يربطهما ظل ينتظرني، هناك، تحتي مباشرة..

***

49

أتى قاضٍ، أو شخص من مكتب المدعي العام، لستُ أدري ما صفته بالضبط، طلبت منه أن يمتّعوني بالعفو، وأنا أضمُّ يديّ وأجثو على ركبتيّ، أجابني متسائلًا وهو يبتسم ابتسامة قائلة: أهذا كل ما لديَّ لأقوله له؟

رددت:

- العفو، العفو! أو كن رحيمًا بي وامنحني خمس دقائق أخرى.. من يدري؟ قد يأتي العفو الملكي لينتشلني من مصيري القاتم، الدامي، إنه لَمن المريع أن أموت بهذه الطريقة في هذه السن الصغيرة! لقد سبق أن رأينا عدة مرات عفوًا يأتي في آخر لحظة. ومن يستحق العفو أكثر مني سيدي؟

هذا الجلاد قاسي القلب، دنا من القاضي ليخبره بأن التنفيذ يجب أن يتم في ساعته المحددة، وأن ساعة التنفيذ تقترب، وأنه

هو المسؤول عن ذلك، بالإضافة إلى أن السماء تمطر، وهذا يُهَدّد بتعريض المقصلة إلى الصدأ..

قلت:

- الرحمة، دقيقة أخرى لأنتظر العفو عني، أو سأضطر إلى الدفاع عن نفسي، وسأنهش بأنيابي كل من يجرؤ على الاقتراب مني!

ابتعد كل من القاضي والجلاد عني، ظللت وحدي هناك، قبل أن يأتي ضابطان ويقفا بِقُربي..

آه، الحشد الرهيب وصرخاته الوحشية!

من يدري إن كنتُ سأنجو من المقصلة؟ إذا كنت سأتمكن من الهرب، أو أتمتع بالعفو الملكي.. من المستحيل ألا يعفوا عني..

آه، الملاعين، يبدو أنهم يَرْتَقون المنصّة..

الساعة الرابعة

***

كُتِبَ على هامش الصفحة الأولى للمخطوطة الأصلية لآخر يوم لمحكوم إعدام:

الثلاثاء 14 أكتوبر 1828 .

وأسفل الصفحة الأخيرة، كُتِبَ:

ليلة الخميس / الجمعة 26 ديسمبر 1828



فيكتور ماري (هوغو) بالفرنسية (Victor Marie Hugo :

وُلد في 26 فبراير 1802، تُوفي في 22 مايو 1885) كان أديبًا وشاعرًا وروائيًّا فرنسيًّا، يُعتَبر من أبرز أدباء فرنسا في الحقبة الرومانسية، وترجمت أعماله إلى أغلب اللغات المنطوقة. وهوَ مشهورٌ في فرنسا باعتباره شاعِرًا في المقام الأول ثُم راويًا، وقد ألّف العديدَ من الدواوين لعلّ أشهرها ديوان تأملات Les Contemplations وديوان أسطورة العصور La Légende des siècles. أمّا خارِج فرنسا، فهو غير مشهورٍ لكونِه كاتِبًا وراويًا أكثر من كونه شاعِرًا، وأبرَز أعمالِه الروائية هي رواية البؤساء Les Misérables وأحدَب نوتردام Notre-Dame de Paris. كما اشتُهر في حقبَته بكونِه ناشطًا اجتماعيًّا حيث كانَ يدعو لإلغاء حُكم الإعدام في

كتابه الشهير **Le dernier jour d'un condamné** كما كانَ مؤيّدًا لنظام الجمهورية في الحُكم، وأعمالُه كانت تَمَس القضايا الاجتماعية والسياسيّة في عصره.

وُلد هوغو عام **1802** في بيزنسون، وتُوفّي عن عُمرٍ يناهز الـ **83** عام **1885**، ودُفِن في مقبرة العظماء، وقد تمّ تكريمُ ذكراه بعدّة طُرق، فمثلًا وُضِعت صورته على الفرنك الفرنسي، وقد اقتُبَست روايته البؤساء العديدُ من الأعمال التلفزيونية والسينيمائية والغنائية والمسرحيّة.

صدرت الطبعة الأولى عام 1829